

الدكتور مولود عويمر

حوارات في الفكر والتاريخ



1446 هـ / 2024 م

أ.د. مولود عويمر

حوارات في الفكر والتاريخ

الجزائر / 1446 هـ - 2024 م

الإهداء

إلى كل الصحفيين والإعلاميين الذين استشهدوا في الميدان،
وهم يبحثون عن الحقيقة، ويسعون إلى نشر الخبر الصحيح.

﴿مقدمة﴾

إن الحوارات المنشورة في هذا الكتاب هي في حقيقة الأمر تمثل جزءا يسيرا من الحوارات التي أجرتها معي الصحافة المكتوبة والإعلام السمعي البصري في الجزائر وفي الخارج، والسبب في ذلك هو أنني لم أستطع دائما الحصول على نسخة من تلك الحوارات خاصة التي سجلتها في البرامج الإذاعية والحصص التلفزيونية.

أما التي توصلت إليها فإني لم أستطع أن أنشرها كلها في هذه الطبعة لما يتطلب ذلك من جهد وعمل وتفريغ لتفريغها وتحريرها. وإنما نشرت بعضها فقط. ويختلف حجم هذه الحوارات، فمنها الحوار القصير الذي لا يتعدى 3 أسئلة، ومنها الحوارات الطويلة التي تضمنت صفحات عديدة.

ولا أخفي على القارئ أنني كنت أعبر دائما عن آرائي حول قضايا فكرية وتاريخية بكل حرية وراحة البال، أقول ما أراه صوابا يخدم تطوّر مسيرة العلم، ويساهم في بناء مجتمع المعرفة، وينشر ثقافة العيش المشترك.

كنت أعتبر دائما حضوري في القنوات التلفزيونية والاستوديوهات الإذاعية وفي الجرائد والمجلات ولوجا إلى فضاءات أخرى مهمة للتواصل مع القراء، وفرصة ثمينة لعرض آراء وأفكار حول قضايا تراثية أو معاصرة لا تهم فقط الباحثين والطلبة والمتقنين الذين أوجّه إليهم كتاباتي في غالب الأحيان، وإنما تهم أيضا شرائح أخرى من المجتمع التي لا يصل إليها ما

أكتبه، أو تقرأه بشكل آخر بخاصة لما يكون مكملاً بالصورة والصوت كما هو الحال في التلفزيون أو ممزوجا بالصوت والإحساس كما هو الحال في الإذاعة.

لا بد أن أقول أيضا أن المفكر يجد أحيانا راحة في التعبير عن آرائه شفويا أسهل من التعبير عنها كتابيا باختلاف الأبحاث والمحاضرات العلمية التي لها طابع آخر وطريقة خاصة لإيصال معلوماتها وعرضها وشرحها وتحليلها.

لقد تناولت في هذه الحوارات الصحفية واللقاءات الإعلامية موضوعات تاريخية وفكرية متنوعة، يحددها دائما الإعلاميون أنفسهم ولا أختارها أو أوجه الصحفيين إليها؛ فكنت أترك لهم دائما الحرية التامة بشرط أن تكون الموضوعات المقترحة للحوار ضمن اهتماماتي العلمية والفكرية. وأبوء هنا بأنني اعتذرت مرات عديدة عن إجراء حوارات حول الموضوعات الخارجة عن اهتماماتي الفكرية والبعيدة عن انشغالاتي البحثية.

وعوضا أن أنشرها هنا حسب ترتيب صدورها، فإنني فضلت أن أقسم الحوارات إلى محاور على حسب الموضوعات المطروحة، لذلك قسمتها إلى 4 محاور، وهي: الهوية والتاريخ، من أجل تنمية المجتمع، بين حضارتين: الإسلامية والغربية، أعلام وتجارب.

وهكذا يجد القارئ هنا أحاديث عن قضايا معاصرة كالهوية والتاريخ والتربية والعلم والترجمة والاستشراق والاستغراب، وكذلك آراء وأفكار حول بعض الشخصيات مثل العالم الأزهري الشيخ محمد الخضر الحسين، ورائد الإصلاح في الجزائر الشيخ عبد الحميد بن باديس، والمؤرخ والفقهاء الشيخ عبد الرحمن الجيلالي، والمفكر مالك بن نبي، والمفكر الإيراني الدكتور علي شريعتي، وغيرهم من العلماء والمفكرين والباحثين المعاصرين.

ولا شك أن القارئ سيلحظ التزامي الدائم بالحديث عن القضايا الحيوية سواء استحضرتها من تراثنا العريق أو استمدتها من واقعنا الراهن وبيان مدى تأثيراتها على يومياتنا ومستقبلنا القريب ومصيرنا البعيد، وسيجد مرة أخرى وفائي لخطي الفكري الذي أحرص عليه باستمرار سواء في ما تخطه يدي أو ينطق به لساني.

ولا أنسى في ختام هذه المقدمة أن أشكر كل الصحفيين والإعلاميين الذين أتاحوا لي الفرص لعرض مجموعة من أفكاري، والتعبير عن آرائي حول قضايا الفكر التاريخي القديم والمعاصر، وساهموا معي في خدمة الفكر والتاريخ، والترويج للقيم الأخلاقية في المجتمع من خلال وسائل الإعلام المختلفة.

والله وليّ التوفيق والسداد.

المحوّر الأول:
الهويّة والتاريخ

﴿مهنة المؤرخ وإشكالية كتابة التاريخ﴾¹

إن الذي يقرأ كتاباتكم ويتابع محاضراتكم، يلاحظ بكل سهولة اهتمامكم المزوج بالتاريخ والفكر؟ كيف استطعتم الجمع بينهما؟

نعم، مزجت في كتاباتي بين السرد التاريخي والطرح الفكري، ذلك أن مهنة المؤرخ لا تنحصر في استحضار الماضي ووصف الحدث دون قراءة سياقاته ومرافقة مساراته وتحليل انكساراته والتأمل في مآلاته. ففي كتابي حول الشيخ عبد الحميد بن باديس، تناولت حياته في فصل كامل، ثم درست في فصل آخر أفكاره في التاريخ والسياسة والحرية والعلم والتقدم. وكذلك، درست المفكر مالك بن نبي بنفس الطريقة. وتظهر هذه المقاربات الفكرية التاريخية بشكل أوضح في كتيبي التالية: "الإسلام والغرب بين رواسب التاريخ وتحديات المستقبل"، و"مقاربات في الاستشراق والإستغراب"، و"الفكر الإصلاحى المعاصر وقضايا التنوير".

لا شك أن هنالك تأثيرات متعددة تفسر هذا المنهج فأنا تأثرت بعدد من العلماء المشتغلين بتخصصات متعددة كالتاريخ والفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس والأدب

¹ البصائر، العدد 991، 23 ديسمبر 2019، ص 12-13. حاورته فاطمة طاهي.

سواء كانوا مسلمين أو غربيين. ربما كان أيضا نتيجة مطالعاتي التي لا تقتصر على لون واحد من العلوم بل أقرأ في كل المعارف الإنسانية لتحصيل المعلومات وتحسين المنهج وكسب اللغة السليمة وتطوير الخيال الخصب.

اهتمت أيضا بأدب الرحلة في كتابكم "شخصيات وذكريات". هل يمكن أن تعطينا فكرة عن هذا الموضوع؟

نعم أدب الرحلة هو من الفنون الأدبية التي تطوّرت في تراثنا العربي والإسلامي، وانتقل إلى أوروبا بشكله المتقدم. ووجدنا هذا الفن يتأرجح بين علم الجغرافية والأدب، ثم صار فنا عاما يهتم به كل العلماء الذين يحرصون على سرد رحلاتهم ووصف مشاهدهم والبوح بخواطرهم وعرض آرائهم.

وهكذا عرفنا على سبيل المثال حياة ابن خلدون وفهمنا أفكاره بفضل ما دونه في كتابه "رحلة ابن خلدون شرقا وغربا"، وعرفنا الحياة الاجتماعية والدينية والثقافية في الجزائر قبيل الاحتلال الفرنسي بفضل ما كتبه الرحالة الأوروبيون الذين زاروا الجزائر في تلك الفترة.

أما فيما يخصني، فقد كتبت عن عدة رحلات علمية قمت بها عبر القطر الجزائري أو في دول عربية وأوروبية. ولا شك أن توثيق تلك الرحلات أفادتني في بحوثي، وعرفت غيري بالمكتبات والجامعات التي زرتها والشخصيات التي التقيت بها فضلا عن تحول بعضها إلى دليل سياحي وثقافي وعلمي لعدد من الباحثين الذين سافروا من بعدي إلى تلك المدن الجزائرية والبلدان الأجنبية.

كيف ساهم علماءنا المسلمون في بناء الحضارة الإنسانية؟

-صحيح أن العلماء العرب والمسلمين قد ساهموا بقسط كبير في بناء الحضارة الإنسانية، سواء في الحواضر الإسلامية الكبرى كدمشق وبغداد والقاهرة وبجاية وتلمسان والقيروان ومراكش وفاس وبجاري وسمرقند...، أو في أوروبا كالأندلس وصقلية في جنوب إيطاليا.

كانت هذه المدن تعج بالعلماء والجامعات والمدارس، وقد أنتج المسلمون باللغة العربية الآلاف من الكتب في جميع التخصصات العلمية والأدبية والفنية، وترجمت العديد منها إلى اللغات الأخرى، كاللاتينية في البداية ثم إلى اللغات الجديدة في أوروبا مثل الإسبانية والفرنسية والانجليزية والألمانية...

وكل سائح يذهب اليوم إلى الأندلس أو إلى جنوب فرنسا، أو جنوب إيطاليا يجد هذه الآثار مازالت قائمة تشهد على تلك الحضارة الإسلامية الكبيرة، فعندما تذهبن إلى اشبيليا أو قرطبة أو غرناطة ستجدن السياح من كل أنحاء العالم قادمين إلى هذه البلاد لكي يتعرفوا على هذه الحضارة من خلال معالمها الأثرية الشاخحة. وتوسعت أكثر هذه الحضارة الإسلامية في العصر الحديث مع توسع الدولة العثمانية في أوروبا الشرقية.

واستحضر هنا كثيرا من الجهود العلمية لتوثيق هذه الحضارة الكبرى والتعريف بإنجازاتها المتميزة في مختلف فروع المعرفة، وهو ما يسمى تاريخ العلوم. أذكر هنا العالم التركي الألماني الدكتور فؤاد سيزكين، الذي أسس "معهد تاريخ العلوم العربية

والإسلامية" في جامعة فرانكفورت، وأصدر موسوعة تاريخ التراث العربي باللغة الألمانية في 12 مجلدا. ويشهد هذا المركز استقطابا كبيرا للباحثين في الحضارة الإسلامية من كل أنحاء العالم.

وكذلك أتوه هنا بجهود العالم المصري-الفرنسي الدكتور رشدي راشد أستاذ تاريخ العلوم العربية في جامعة باريس 7، له دراسات كثيرة حول إسهامات المسلمين في الرياضيات وعلم الفلك، ونشر مجموعة من الكتب ومقالات كثيرة في هذا المجال باللغة الفرنسية والانجليزية.

وأذكر أيضا العالم الجزائري الدكتور أحمد جبار أستاذ بجامعة باريس 11، وهو أيضا يدرس تاريخ الرياضيات في الجامعة الفرنسية، وله محاضرات في جميع أنحاء العالم حول التراث العلمي العربي. أما بالنسبة للعلماء الغربيين فأذكر هنا المؤرخ الأمريكي جورج سارطون صاحب كتاب "تاريخ العلوم"، والذي تحدث فيه عن إسهامات المسلمين في العلوم الطبيعية والتقنية.

ولعل القارئ العربي يعرف أكثر الكتب الكلاسيكية في هذا المجال مثل "حضارة العرب" للعالم الفرنسي غوستاف لوبون، و"شمس الله تسطع على الغرب" للمستشرقة الألمانية سغريد هونكه وهو كتاب تُرجم إلى عدة لغات، وأعيد طبعه عدة مرات. أما الاهتمام بتاريخ العلوم العربية في العالم العربي والإسلامي فهذا تحصيل حاصل، ونشرت حوله كتب ودراسات لا حصر لها.

هناك اهتمام كبير بالثورة التحريرية المباركة، سواء من خلال الأبحاث والإعلام أو مختلف الدراسات الوطنية وكذا الأجنبية، فما هو السبب في نظركم؟

الثورة الجزائرية من الموضوعات التي تثير باستمرار اهتمام الباحثين، سواء من قبل الجزائريين أو الفرنسيين أو غيرهم من الباحثين. وذلك لما تتميز به هذه الثورة من رمزيات وقيم إنسانية وزخم كبير في الأحداث، وطول مدتها "سبع سنوات ونصف"، وعدد الشهداء، وتداعياتها الداخلية والخارجية في الجوانب الديموغرافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

وما زالت هذه الثورة تؤثر في العلاقات الجزائرية الفرنسية في القطاعات المختلفة وبالتالي تحافظ باستمرار على راهنتها وحضورها الرمزي.

ورغم أن الثورة كانت محلية تخص تحرير أرض الجزائر إلا أنها كانت لها تداعيات على المستوى الإفريقي، فهي ساهمت بطريقة مباشرة أو غير مباشرة في تحرير أو استقلال مجموعة من الدول الإفريقية وقبلها المغرب وتونس.

كما أصبحت الثورة الجزائرية مصدر إلهام لكاتب وأدباء وشعراء سواء كانوا جزائريين أو أجانب تأثروا بهذه الثورة وألّفوا حولها كتباً ونشروا عنها مقالات ونظموا حولها قصائد خالدة، وكتبوا مسرحيات وأنتجوا أفلاماً حولها، أشهرها فيلم "يوسف شاهين" حول المجاهدة جميلة بوحيرد.

إن كل هذه الأبعاد المتعددة تجعل هذه الثورة العظيمة في مختلف الجوانب تكون محل اهتمام الباحثين سواء في الجزائر وفي مختلف الدول العربية والأوروبية. ونحن قصرنا

في تعريب هذه الدراسات الأجنبية التي اهتمت بالثورة الجزائرية من خلال الوثائق الروسية والأمريكية والألمانية والسويسرية...الخ.

لماذا أهمل المؤرخون المراحل الأخرى من الحكم الاستعماري الفرنسي في الجزائر منذ 1830؟

ليس هنالك إهمال للمراحل الأخرى من الحكم الاستعماري الفرنسي منذ 1830، بل وجدت في الحقب الماضية اهتماما كبيرا من قبل المؤرخين الذين اشتغلوا كثيرا حول الفترة 1830-1945، مثل أبو القاسم سعد الله، محفوظ قداش، جمال قنان، المهدي البوعبدلي، عبد الحميد زوزو، ويحي بوعزيز، وعبد الكريم بوصفصاف، فضلا عن المؤرخين الرواد كأحمد توفيق المدني وعبد الرحمان الجيلالي ومحمد علي دبوز...بالإضافة إلى كتب ومجوت ودراسات ورسائل جامعية كثيرة حول هذا الموضوع للباحثين الآخرين بخاصة الجيل الجديد من المؤرخين.

أما تاريخ الثورة فإنه تخصص جديد مقرر في الجامعة الجزائرية في بداية الألفية الجديدة عكس ما هو سائد في الجامعة الفرنسية التي اهتمت به منذ سبعينيات القرن الماضي. اليوم، فيه اهتمام واضح بتاريخ الثورة الجزائرية ليس فقط في الجامعة، وإنما في القطاعات الأخرى مثل قطاع الإنتاج التلفزيوني والسينمائي ووسائل الإعلام.

وبالتالي فإن هذا الاهتمام المتنوع والمتعدد، واستضافة المجاهدين والمختصين في البرامج التلفزيونية خاصة في المناسبات الوطنية جعل الناس يظنون أن تاريخ الثورة

هو التخصص الوحيد الذي يشتغل عليه الباحثون الجزائريون بعدما استنفذت المراحل الأخرى بالدرس، وانضمام مؤرخين مختصين في الفترات البعيدة إليهم.

هذا ليس صحيحا، فمازالت المراحل التاريخية الأخرى تستقطب اهتمامات الباحثين الجزائريين وغيرهم فانظر على سبيل المثال ما يكتب حول الأمير عبد القادر، والحركة الإصلاحية ورجالها...

ولا شك أن هناك موضوعات كثيرة في التاريخ القديم والحديث لم تدرس بعد أو هي في حاجة إلى إعادة الدراسة والبحث على ضوء الدراسات الحديثة والوثائق الجديدة.

-تطرقتم في كتابكم القيم " الثورة الجزائرية في الدراسات المعاصرة" لكل ما كتبه الباحثون حول هذه الثورة المجيدة، هل هي كتابة علمية صحيحة قريبة من الواقع؟

تختلف طبيعة الكتابة التاريخية عن الكتابات في المجالات المعرفية الأخرى. فالمؤرخ ينطلق من الوثائق والشهادات المتوفرة عنده، وعلى ضوءها يضع تصورات و ينجز أبحاثه.

وإذا ظهرت في المستقبل القريب أو البعيد وثائق غير معروفة وشهادات جديدة لصناع الحدث المدروس يتم أو يدعم الباحث ما كتبه من قبل، أو أن ينفيه.

وهذا لا يعني أبدا أن المؤرخ يقضي عمره في الإثبات والنفي للحدث التاريخي، فهو عندما لا يندفع في الكتابة ويدرس موضوعه من كل جوانبه ويتحرى الحقيقة العلمية

بعيدا عن الذاتية والإيديولوجية فإنه يصل إلى تحقيق الغاية العلمية وكل الوثائق التي تظهر في المستقبل تدعم ما توصل إليه من النتائج.

ليس بالضرورة أن يكتب المؤرخ عن أحداث ووقائع ماضية كما حدثت بالضبط لكن يتقصى الحقيقة التاريخية قدر المستطاع، خاصة في ما يتعلق بالتاريخ المعاصر.

أما بالنسبة للذي يبحث في التاريخ القديم والتاريخ الوسيط والتاريخ الحديث، فالبعد الزمني كبير جدا بينه وبين الحدث الذي يكتب عنه، بينما المؤرخ المعاصر يكتب عن أحداث قريبة منه، وبالتالي يحتاج إلى مراجعة مستمرة لما يكتبه حول الأحداث القريبة، واكتشاف الماضي واستحضاره مرة أخرى معتمدا على المقاربات النقدية والمقارنة للدراسات السابقة، وكذلك الأخذ بعين الاعتبار المعطيات والشهادات الجديدة.

وهكذا يستطيع المؤرخ أن يقترب كل مرة من الحقيقة التاريخية وهو يطبق هذه المنهجية في دراسته لتاريخ الثورة الجزائرية، ويتمكن من الإجابة عن إشكالياته إجابة صحيحة. وهنا أقول أن العديد من المؤرخين الجزائريين والأجانب وفقوا في كتاباتهم التي صارت اليوم مرجعيات في هذا المجال نظرا لالتزامها بالقواعد العلمية والجديّة في البحث والدقة في التحليل والتريث في إصدار الأحكام.

أما مذكرات المجاهدين التي ظهرت منذ الانفتاح الديمقراطي في عام 1989 إلى اليوم فإنها تساهم في كتابة تاريخ الثورة الجزائرية لما تقدمه من المعلومات وما تذيّله من الوثائق والأرشيف النادر، إلا أن المؤرخ يستأنس بها خاصة لما يجد ثغرات تاريخية

وتناقضات في المعلومات والتباس في المواقف. ويخضعها للضوابط العلمية شأنها شأن كل النصوص التاريخية.

نستعيد من تاريخنا ما نستفيد منه في حاضرنا لنبني عليه مستقبلنا، فما هي المحطات التاريخية التي ترونها ضرورية بأن تبقى في الذاكرة الشعبية؟

طبعاً، تاريخ الجزائر تاريخ عريق، حيث أن الاكتشافات الأثرية تحدثت عن 2 مليون سنة. إن الإنسان عاش في فضاءنا الجغرافي الذي نسميه اليوم الجزائر. لقد عرفت هذه المنطقة عدة أمواج استعمارية عبر العصور، ووجدنا هذا الإنسان الجزائري قد تفاعل معها أحياناً وقاومها أحياناً أخرى.

كما استفاد من ثقافتها ومن حضارتها ومن تجارها المختلفة ومن نظمها السياسية والعسكرية ومن ثمرات ثقافتها وحضارتها، لكن أيضاً صنع هذا الإنسان الجزائري خصوصياته الثقافية والحضارية، وحافظ عليها عبر العصور.

وتظهر هذه الخصوصية الثقافية والحضارية فيما أنتجه هذا الإنسان في الجزائر من حضارة وثقافة وما تركه من معالم أثرية موجودة في قسنطينة وتلمسان وشرشال وبجاية والتبسة وغيرها من المدن الجزائرية، وهي تشهد على إبداع هذا الإنسان الجزائري عبر التاريخ في مختلف مجالات الحياة.

ولهذا لو يأتي المؤرخ إلى عرض كل هذا التاريخ الطويل ويقف عند محطاته العديدة وأعلامه ومعالمه عبر هذا التاريخ، فإنه يصعب عليه أن يميز بين مختلف هذه المراحل، ولهذا جاء التخصص في التاريخ ليركز المؤرخون على فترات معينة.

ومن خلال التخصص نصل إلى ضبط كل هذا الإنتاج الفكري والعلمي والحضاري للإنسان الجزائري، ونطلع على كل تاريخ الجزائر عبر العصور بنظرة أشمل وأعمق.

بل أقول أن عندما تجتمع جهود كل العلماء المختصين وليس فقط المؤرخين فإنها تنجز موسوعة الجزائر تدرس كل مجالات الحياة والطبيعة والإنسان في عدة مجلدات، على غرار ما هو موجود في دول كثيرة.

وأشير هنا إلى أن نابوليون بونابارت عندما احتل مصر كلف العلماء المرافقين لحملته، بوضع موسوعة عن مصر فألفوا له كتابا ضخما عنوانه "وصف مصر" في عدة مجلدات تضمن دراسة شاملة وعميقة لكل جوانب الحياة في مصر.

وقد فعل الفرنسيون نفس الشيء لما احتلوا الجزائر وقام مجموعة من العلماء الفرنسيين بوضع موسوعة كبيرة حول الجزائر. ونحن اليوم، في حاجة ماسة إلى هذا العمل العلمي لكي نحيط بكل الجوانب المتعلقة في الحضارة الجزائرية وإسهاماتها في الحضارة العربية الإسلامية وكذلك في الحضارة الإنسانية.

ما هو تقييمكم لواقع البحث التاريخي في الجامعة الجزائرية؟

-البحث التاريخي في الجامعة الجزائرية يحتاج إلى رؤية واضحة، فنحدد البرامج ونعين الوسائل ونرسم الأهداف القريبة والبعيدة. فلا نعرف ماذا نريد من البحث العلمي.

البعض يرى في البحث العلمي وسيلة لكي يرتقي في السلم الوظيفي وما يترتب عنه من امتيازات مادية. وهناك من يفتح مخبرا من أجل تنظيم الملتقيات والندوات دون طبعها والاستفادة منها.

وهناك من يفتح المخبر لتكوين الباحثين ونقل الخبرات والتجارب بين الأجيال. وهناك من ينتج المعرفة النظرية دون أن يحولها أهل القرار إلى منتج صناعي مفيد أو قيمة أخلاقية أو فكرة اجتماعية أو سياسية نافعة. كل هذه الاعتبارات لها مسوّغاتها المقبولة وغير المقبولة.

لقد أنجزت مع صديقي الدكتور علاوة عمارة كتابا عنوانه: " نصف قرن من البحث التاريخي بالجامعة الجزائرية 1962-2012"، وهي محاولة لتقييم الإنتاج التاريخي في الجامعة الجزائرية خلال نصف قرن، فوجدنا أن ما تم لحد الآن متزايد باستمرار من الناحية الكمية ومتفاوت من الناحية النوعية، إذ نحن في حاجة ماسة إلى تجديد الموضوعات وتحديث طرق البحث.

وبهذه الشروط نكوّن الباحثين الجادين ونساهم في تطوير البحث التاريخي ليس على المستوى المحلي ولكن على المستوى العالمي. فكثيرا من النقاشات التاريخية والفكرية التي نوقشت في القرن الماضي كان فيها المؤرخ الجزائري غائبا.

ليس السبب لأنه كان لا ينتج أو أن إنتاجه غير جدير بالدرس وإنما لكون المؤرخ الجزائري كان منعزلا في جامعته ومنشغلا بأعماله دون المشاركة في الفضاءات التي كانت تصنع فيها الأفكار الجديدة وتروج فيها للكتب والنظريات والآراء الفاعلة كما كان

يفعل المؤرخ المغربي عبد الله العروي أو المؤرخ التونسي هشام جعيط، وغيرهما من المؤرخين العرب المعاصرين.

-لماذا لا تُطبع مذكرات الماجستير والدكتوراه المتحصلة على تقدير جيد جدا، لإثراء المكتبة التاريخية الجزائرية ؟

-هذا السؤال مهم جدا. وأنا شخصيا طرحت هذا السؤال في مناسبات عديدة. فلا يعقل أن نهمل رصيда معرفيا كبيرا أنجزه الباحثون الجزائريون أو غيرهم بشق الأنفس، ثم يوضع في رفوف المكتبات أو في مخازنها يعلوها الغبار ولا يستفيد منه الطلبة والباحثون.

فكم من موضوعات درست مرات عديدة في جامعات مختلفة دون أن ينتبه لها الباحثون أو المشرفون أو المجالس العلمية بخاصة قبل اختراع الوسائل التقنية الحديثة.

لم يتطور البحث العلمي إلا بالتراكم المعرفي، فكل خطوة ثابتة في طريق العلم تخدم الخطوات الجادة التي جاءت بعدها. وكلما نشرت النتايج العلمية واطلع عليها الباحثون والعلماء أخضعوها للنقد والتقويم والتصحيح والتأويل أو الإضافة والإثراء والتطوير؛ فكم من نظرية علمية انطلقت من نظرية سابقة، وكم من آراء تاريخية تغيرت بعد ظهور وثائق جديدة.

إن نشر الحصيلة العلمية هي خطوة ضرورية لتقدم العلم وتعميم المعرفة. غير أن الكثير من الأعمال الأكاديمية من الماجستير والدكتوراه القيمة التي أنجزت في الجامعات الجزائرية لم تنشر، ويكتفي أصحابها بالحصول على الشهادة العلمية والترقية المهنية.

لا شك أن الباحث يتحمل جزء من المسؤولية عندما لا يبادر بطبع عمله في دور النشر الجزائرية أو غيرها، ولو اقتضى الأمر تحمل بعض الأعباء المالية للطبع، أو التنازل عن حقوقه. وليس الشرط أن ينشرها كاملة فيستطيع أن يرسل ملخصها إلى المجالات التي تعنى بموضوعها فتنشرها له وتربطه بالمختصين والمهتمين.

كما يستطيع التعريف بها في وسائل التواصل الحديثة من مواقع إلكترونية مختصة أو في شبكات التواصل الاجتماعي ليستقطب المهتمين من الباحثين أو الطلبة.

إن الباحث في عصر العولمة يختلف كثيرا عن الباحث الكلاسيكي الذي يختزل مهمته في البحث العلمي ويتكل على الجامعة أو الوزارة أو مؤسسات أخرى في أداء الإجراءات والخطوات الأخرى. فالباحث الجديد هو كذلك رجل الأعمال والتسويق، يروج لمشروعه ويجذب له التمويل ويسهر على تسويقه بخاصة في المجالات العلمية التي تحتاج إلى دعم مالي كبير وتحويل النتيجة النظرية إلى منتج وبضاعة.

ولا ننسى أيضا مسؤولية المخابر العلمية التي تأسست في الجامعات الجزائرية وتستفيد من دعم مالي معتبر من وزارة التعليم العالي والبحث العلمي وكذلك المؤسسات العمومية والخاصة، غير أن غالبيتها - وأتكلم هنا عن المخابر التاريخية- تهتم بتنظيم الملتقيات والندوات وتهمل النشر، ولا تبحث عن الرسائل الجامعية المتميزة في مجال تخصصها لتنشرها وتروج لها.

ولا بد أن أشير هنا أيضا إلى مؤسسة مهمة وهي ديوان المطبوعات الجامعية التي من مهامها الأولى طبع كل ما يحتاجه الطالب والأستاذ والباحث، لكن لا تقوم بدورها كما

ينبغي في هذا المجال بالضبط. فما تنشره ليس دائماً جديداً وله صلة بالبحث العلمي داخل الجامعات الجزائرية، ومنها الرسائل الجامعية الرصينة.

-نصيحتكم للطلبة والباحثين الجدد، كيف يقرؤون تاريخهم ولم يقرؤون؟

-تمثل قوة الباحث في مطالعته المستمرة لمواكبة تطوّر البحث في ميدان تخصصه أو في مجالات اهتمامه. ولا يقرأ لكسب المعلومات فقط أو لاقتباس النصوص للاستشهاد بها في بحوثه المقررة في الحصص التطبيقية أو في إنجاز مذكرات تخرجه أو إعداد رسالة الماجستير أو الدكتوراه. وإنما تكون المطالعة لتكوين الرصيد المعرفي وتدوّق اللغة العلمية السليمة والتمرّن على الكتابة الرصينة دون الاندفاع في النشر دون مراعاة قواعده والتسرع نحو تحقيق الشهرة الزائلة.

يجب أن يكون هاجس الطالب أو الباحث الجديد التكوين المتين قبل كل شيء خاصة في تطبيقات ضوابط المنهجية وتعلم اللغة الأجنبية التي لها صلة بتخصصه حتى ينهل المعلومة من مصدرها الصحيح.

-كلمة أخيرة دكتور عويمر:

-إن تاريخنا في حاجة ماسة إلى كل قلم أمين وعقل سليم ليميط اللثام عن صفحاته المشرقة عبر الزمن بطريقة علمية، لنستمد منها العبر ونغذي بها هويتنا ونحفظ بها مصيرنا ونصنع مستقبلنا.

ذلك أن رسالة المؤرخ لا تتوقف على إنتاج المعرفة في مكتبه أو في مخبره أو على تدريسها لطلبته في مدرجه، وإنما تكمن أيضا في نشرها بين الناس باعتبارها الوسيلة الناجعة لتنوير الإنسان وتحريم المجتمع من التخلف، والارتقاء به في سلم التقدم والازدهار.

الهوية: واقعها ومستقبلها¹

كان ولا يزال دأب نادي الرقيم العلمي ومجلة الريئة المنبثقة عنه: ربط الناس بعلماء بلدهم ومفكرهم والتنويه بهم؛ لما في ذلك من احترام للعلم والوفاء لهم، فإن علماء كل وطن هم أعلم الناس بحال مواطنهم وأعرافهم وثقافتهم ورجالات إصلاحهم، من أجل ذلك قرّر العلماء أن: " بلدي الرجل أعرف به من غيره"، وقد رأينا من اقتحم بلدا غير بلده، فأتى فيها وتكلم في رجالاتها، فحبط فيها خبط عشواء، فظلم وجار في حكمه، فكان لزاما على الإعلام أن ينوّه بعلماء البلد، لأن العلم يقتضي ذلك، ولأن تمام الوفاء يشترطه.

اخترنا هذه المرة المؤرخ فضيلة الدكتور مولود عويمر حفظه الله. والدكتور نجم لامع في تخصصه، مجتهد في ترجمته للعلماء الذين حافظوا على هوية الجزائر، فكان له أوفى نصيب من الرفعة والسؤدد.

ما هي عناصر الهوية الوطنية لدى الدول؟

عناصر الهوية الوطنية متقاربة بين الدول، وإنما الاختلاف في ترتيبها، فهناك من تضع في المقام الأول اللغة كما هو مطروح عند بعض المفكرين القوميّين الغربيّين أو العرب،

¹ مجلة الريئة، العدد 13، سبتمبر 2019. حاوره الأستاذ بلخير بن جدو والدكتور عبد القادر قوبع.

ويأتي بعدها التاريخ ثم المصير المشترك. فهي تمثل في أنظارهم العوامل المؤسسة للحمة الوطنية. بينما نجد العديد من المفكرين المسلمين يؤكدون أولاً وقبل كل شيء على عنصر الدين، وتأتي بعدها المقومات الأخرى التي أشرت إليها سابقاً.

قررت بعض الدول التحرر من تاريخها أو ترك لغتها غير أنها عادت إليها بعد سنوات. وتخلصت بعض الدول من دينها الذي اعتبرته "أفيون الشعوب"، لكنها عادت إليه بعد أن وجدت الأيديولوجية التي كانت تتبناها أخطر من الدين الذي نفرت منه، فالإيديولوجية كما يقول الفيلسوف كارل بوبر تتحوّل مع مرور الزمن إلى عقيدة ودين جديد فتصاب بالعقم والعفن.

كما ابتعدت بعض الدول عن فكرة الوطن بذريعة الانتماء للفكرة "الإنسانية"، غير أنها تراجعت عن ذلك لما أدرك أهل القرار والرأي فيها أن المواطن يعرف أوطان الناس أكثر مما يعرف عن وطنه، ويهتم بها أكثر مما يهتم بشؤون وطنه. ولقد كان المؤرخ الفرنسي إرنست لافيسست من العلماء الذين انتبهوا لهذا الخلل، فألّف عدة كتب مدرسية للمساهمة في إصلاح ذلك الوضع الخطير.

وهناك من اعتبر التاريخ المشترك هو العنصر الموحد للدولة بغض النظر عن الاختلاف الديني والعرقي واللغوي. لقد كتب المؤرخ البلجيكي هنري بيرين كتابه "تاريخ بلجيكا" في 7 مجلدات من هذا المنظور.

وعرفانا بجهده الجبار في إبراز تاريخ هذا البلد الأوروبي "الصغير" الذي لا يتجاوز عمره قرنا ونصف والمتكوّن من عدة قوميات، أمر الملك البلجيكي بنقش صورة هذا المؤرخ في العُملة البلجيكية، وهو شرف لا يحظى به إلا ملوك بلجيكا حسب.

ولم تكن هذه الأفكار المتنوعة طوباوية ومحفوظة في قعر بئر، وإنما تحوّلت إلى وقائع ملموسة، تأسست في ضوئها دول عديدة في أوروبا كألمانيا وإيطاليا في القرن التاسع عشر، ونشأت دول أخرى في القرن العشرين.

كذلك قامت دول في القارات الأخرى كباكستان في سنة 1947 تطبيقا للأفكار التي طرحها كل من محمد إقبال ومحمد علي جناح، ودعمها بعد ذلك المفكر أبو الأعلى المودودي، والجمهورية الإيرانية في عام 1979 تجسيدا لأفكار علي شريعتي ومرتضى مطهري وآية الله الخميني وغيرهم من العلماء والمفكرين الإيرانيين.

هل تطوّرت هذه العناصر؟

إن الدول التي تتقدم باستمرار وتستقبل موجات من الهجرات البشرية من كل أنحاء العالم لتستعين بكفاءاتها ومالها وعضلاتها لدفع عجلة التنمية والتطوّر عندها، تتأثر بهذه التحولات الاجتماعية والاقتصادية وينعكس ذلك سلبا وإيجابا على هويتها.

لا أقول أنها تتخلى عن عناصرها الأصلية وإنما تطعمها بعناصر جديدة. فهل الهوية الفرنسية في القرن 19 هي نفسها الهوية الفرنسية في القرن 21؟

يتحدث اليوم أهل الفكر والرأي والقرار في الغرب عن الهوية المتعددة، والانفتاح على الثقافات والحضارات الأخرى التي ينتمي إليها الوافدون الذين صاروا مواطنين أوريين بالتجنيس أو باعتبارهم أولياء لمواطنين ولدوا حديثا في أوروبا من أصول إفريقية وآسيوية.

لم تعد المسيحية هي الدين الوحيد للهوية الأوروبية، فالإسلام صار عنصرا من العناصر المشكلة للهوية الأوروبية، وكذلك اقتحام أفاظ عربية عديدة للقاموس اللغوي الفرنسي والانجليزي... الخ.

نجد أيضا هذه الظاهرة في العالم العربي، فقد عاشت في رحابه العديد من الأقليات العرقية والدينية والمذهبية سواء في العصور القديمة أو في الفترات الحديثة، وهي تطالب اليوم بحقوقها المختلفة ضمن الإطار الوطني؛ فالإيمان بالعيش المشترك، واحترام الخصوصيات، وتعاون الجميع على خدمة الوطن في جميع القطاعات.

كل هذه الاعتبارات هي التي تضمن متانة النسيج الاجتماعي وضرورة الدولة واستقرارها وتقدمها. فإذا كانت الهوية مرتبطة في الماضي بقيم الحسم والصرامة والمحافظة والأصالة... فإن الهوية الراهنة مرتبطة أكثر بقيم التسامح والتواصل والتفاهم... الخ.

ما هو الفرق بين هوية الدولة وهوية الأمة؟

هوية الدولة متصلة بالمسؤولية السياسية بينما هوية الأمة مرتبطة أكثر بالمخزون الثقافي والموروث الحضاري. لقد قدم لنا التاريخ الاستعماري نماذج من هيمنة الدولة الغالبة على هوية الأمة المغلوبة.

موسكو السوفياتية منعت العديد من الشعوب سواء المسلمة أو المسيحية من ثقافتها ولغاتها الأصلية، وأجبرتها على تبني الثقافة السوفيتية الجديدة. أما الشعوب التي قاومت في البداية هذه السياسة الإمبراطورية فإنها تعرضت لكل أنواع القمع والمسح.

مازالت شعوب جنوب شرق آسيا لم تنسى ما اقترفه الجيش الياباني تجاهها من جرائم وقع نفسي وجسدي ومادي لما كان سجيناً لأيدولوجيته العسكرية العمياء التي كانت تحتقر الهويات الأخرى شر احتقار.

أما التاريخ الاستعماري للدول الأوروبية (البرتغال، إسبانيا، فرنسا، بريطانيا) فهو أيضا حافل بفظائع تجاه الهويات الأصلية في آسيا وإفريقيا وأمريكا.

غير أن تلك الشعوب المظلومة استرجعت هويتها بعد أن دفعت ثمنا غالبا في سبيل استرجاعها. لذلك أقول دائما: قد تستغرق الشعوب وقتا طويلا لاستيعاب "مكر التاريخ" لكنها إذا تفضنت استعجلت التغيير!

إن القائميين على تسيير شؤون الدول يدركون اليوم جيدا مدى التأثير المتبادل بين الهويتين، ومراعاة ذلك التأثير والموازنة بين البعد السياسي المتجدد والبعد الثقافي المتجدد يحفظان المجتمع من كل الانحرافات الممكنة، ويعدانه عن كل الصراعات التي

تنقض غزله الاجتماعي، وتقضي على كل فرص المجتمع في التقدم، وتحرم أفراده في الرقي والازدهار.

فلا غرابة أن نرى الدول الكبرى تهتم بترقية الثقافة والفنون، وتشجع على كتابة التاريخ وإحياء الذاكرة القديمة والحديثة، وتدعمّ محافظة التراث وترقيته ونشره، لتنمية الحس بالمسؤولية للمواطن وتعزيز الانتماء للفضاء الجماعي لكل فرد في المجتمع، فتضمن بذلك حق الجميع في العيش المشترك، وتدعم الكل في السير معا نحو مصير واحد.

كيف أسهم أبناء منطقة القبائل في مساعدة ودعم نشاطات جمعية العلماء لمحاربة السياسة الاستعمارية في هذه المنطقة؟

كان علماء الزواوة ضمن الرواد السابقين إلى الدعوة لتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، أذكر هنا على سبيل المثال الشيخ المولود الحافظي الذي نشر مقالا في عام 1928 قدم فيه رؤية شاملة لاتحاد العلماء واقترح خطة الطريق لتأسيس جمعية تضم كل رجال العلم في الجزائر.

وأذكر كذلك التاجر المحسن السيد عمر إسماعيل، رئيس اللجنة التحضيرية للمؤتمر التأسيسي للجمعية، والذي قدم مبلغ مالي قدره 1000 فرنكا كهدية لمن يحقق هذا الحلم الذي أعلن عنه في الجرائد المعروفة آنذاك كـ "النجاح" و"الشهاب"، و"البلاغ"...الح. ولديّ النسخة الأصلية للقانون الأساسي للجمعية الذي قدمته للولاية العامة الفرنسية للحصول على الاعتماد الرسمي وهو موقع من طرف عمر إسماعيل بصفته رئيسا للجنة الدائمة لجمعية العلماء.

هذا من حيث التأسيس، أما ما يخص النشاط العلمي والدعوي والتربوي، فقد ساهم العديد من علماء الزواوة في العمل الإصلاحي عبر كامل القطر الوطني، ولا بأس أن أذكر هنا للقراء بعض الأسماء اللامعة: أبو يعلى الزواوي، يحي حمودي، الفضيل الورتلاني، سعيد صالح، باعزیز بن عمر، راجح بونار، حسن حموتن، الهادي الزروقي، محمد الأكل شرفاء، عبد الرحمن شيبان، أحمد شقار الثعالبي، محمد الحسن فضلاء، ومحمد الطاهر فضلاء... الخ.

لقد كان لكل شخصية من هذه الشخصيات تاريخ حافل بالنضال الإصلاحي والكفاح الوطني، فقد اهتمت بتدريس اللغة العربية، وساهمت في خدمة الإسلام وإحياء قيمه ونشر تعاليمه السمحاء، وشاركت في تعميق روابط الأخوة بين الجزائريين وترسيخ روح الانتماء للوطن.

-كيف كانت نظرة هؤلاء المصلحين للمسألة البربرية التي تطرح اليوم بقوة؟

-نظرتهم لهذه المسألة كانت علمية وواقعية، لخصها الشيخ عبد الحميد بن باديس الصنهاجي في قوله: "ما من نكير أن الأمة الجزائرية كانت مازيغية من قديم عهدها، وأن أمة من الأمم التي اتصلت بها ما استطاعت أن تقلبها عن كيانها ولا تخرج بها عن مازيغيتها... فلما جاء العرب وفتحوا الجزائر فتحا إسلاميا لنشر الهداية، لا لبسط السيادة وإقامة ميزان العدل الحقيقي بين الناس، لا فرق بين العرب الفاتحين والأمازيغ أبناء الوطن الأصليين، دخل الأمازيغ من أبناء الوطن في الإسلام، وتعلموا لغة الإسلام العربية، طائعين، فوجدوا أبواب التقدم في الحياة كلها مفتحة في وجوههم،

فامتزجوا بالعرب بالمصاهرة... ، واتحدوا في العقيدة والنحلة، كما اتحدوا في الأدب واللغة، فأصبحوا شعبا واحدا عربيا متحدا غاية الاتحاد، ممتزجا غاية الامتزاج".

لو استوعب رجال السياسة هذه النظرة الموضوعية ما وقعت خصومات عديدة حول الموضوع قديما كالأزمة البربرية التي وقعت داخل حزب الشعب الجزائري (ح.ا.ح.د) في عام 1949 وكادت أن تعصف بسنوات من الكفاح الوطني، وحديثا في السجلات الحاصلة في الساحة السياسية والثقافية حول الموروث الأمازيغي للجزائر، واختلاف وجهات النظر حول إحيائه واعتماد اللغة الأمازيغية كلغة وطنية ورسمية للبلاد، وتحديد كتابتها بالحرف العربي أو التافينغي أو اللاتيني.

-القومية العربية هل ساهمت في ترسيخ الهوية العربية أم أساءت للهوية الإسلامية؟

لم تكن العلاقة بين التيار القومي والتيار الإسلامي دائما حسنة بخاصة في فترة المد القومي في الخمسينات والستينات والمد الإسلامي في السبعينات والثمانينات. فكل تيار كان مغرورا بقوته الآنية.

فلا شك أن هنالك عوامل داخلية وخارجية عديدة ساهمت في تأجيج الصراع بين الأطروحتين الأساسيتين في العالم العربي في القرن العشرين. واشتد هذا الصراع بعد أن تبني جمال عبد الناصر المشروع القومي، ودعم الملك فيصل مشروع التضامن الإسلامي.

ولم ينحصر هذا الصراع في جانبه الأيديولوجي، بل انتقل الصراع إلى مواجهة مسلحة في العديد من الدول العربية يتحارب فيها المختلفون في الرأي بالسلاح عوضا من الاحتكام للحوار والمجادلة والتي هي أحسن.

ولا بد أن أقول هنا أن كل واحد من المشروعين حقق إنجازات وأصيب بانتكاسات، وقد ظهرت مراجعات عديدة في صفوف أنصار القومية والإسلامية بل ارتد العديد من المفكرين عن إيديولوجياتهم الأصلية وانتقلوا إلى الضفة الأخرى.

وهناك من تخلى تماما عن أيديولوجيته القومية ودينه المسيحي ليعتبق الإسلام ويدافع عن الفكرة الإسلامية، وأستحضر هنا مثال المفكر الفلسطيني منير شفيق.

كما قام العديد من المفكرين الإسلاميين بمراجعة أفكارهم سواء في كتاباتهم أو في حواراتهم الإعلامية، ولعل الكثير من القراء تابعوا برنامج "مراجعات" الذي تبثه قناة الحوار اللندنية التي استضاف خلالها الأستاذ عزام التميمي مجموعة من المفكرين والعلماء كحسن الترابي وراشد الغنوشي وعصام العطار وعصام البشير ويوسف القرضاوي... وغيرهم.

ولعل تعثر المشروعين في تحقيق أهدافها الكبرى لأسباب كثيرة ذاتية وأخرى خارجية، فإن كثيرا من المفكرين والسياسيين القوميين والإسلاميين تقاربوا فيما بينهم، ودعوا إلى التمازج المشترك وتبادل وجهات النظر والتعاون المثمر على بناء الوطن بعيدا عن الصراعات والأيديولوجية القديمة.

ويعتبر مركز الوحدة العربية ببيروت من المؤسسات الرائدة في هذا المجال حيث بادرت لتوفير الشروط الملائمة لهذا التقارب، وأصدر عدة كتب في هذا الموضوع، ونظم عدة ندوات ومؤتمرات في هذا المجال شاركت فيه كل التيارات الفكرية والمذهبية الموجودة في العالم العربي.

كيف يمكن اجتناب التوظيف السياسي والحزبي لعناصر الهوية؟

-الهوية باعتبارها عاملا جامعا لكل الجزائريين علينا أن نبعدنا عن كل توظيف سياسي وسجال حزبي، فهي الضامنة لوحدتنا والحاضنة لحاضرنا والمؤمنة لمستقبلنا، فبالعيش المشترك وقبول الآخر بغض النظر عن الفوارق العرقية والدينية بيننا، نتجاوز معوقات الحاضر، وتتغلب على مخاوف المستقبل، ونبني وطنا يسود فيه العدل والحرية والرقى.

لقد شاهدنا العديد من الأحزاب السياسية المتطرفة في الدول الغربية كإيطاليا وإسبانيا وألمانيا وفرنسا والنمسا وغيرها توظف التاريخ أو الدين أو العرق أو اللغة لتقصي جزء معتبرا من هذه المجتمعات، ولقد كان العرب والمسلمون أكبر ضحايا هذا الحراك القومي المتطرف، ومازالت الجروح العميقة التي خلفتها حروب البلقان في التسعينيات القرن الماضي لم تضمّد بعد.

وقد رفضت الحكومات الغربية هذه الدعوات القومية العنصرية، وقاومت نشاطاتها ومنعتها بكل الوسائل التي يسمح بها القانون ومبادئ الديمقراطية. فهل نقبل نحن في عالمنا العربي بشكل عام، وفي وطننا الجزائر بشكل خاص بالأفكار الهدامة، التي

تعمّق الشقاق بين أفراد المجتمع الواحد، وتهدّد وحدته، وتكسر كل مقوّمات تميّته وتقدمه؟

ليس هنالك إنسان عاقل ومواطن صالح يقبل بذلك، ويرضى بخراب عمران البلاد وتهجير العباد، فالحزب الذي يتلاعب بعناصر الهوية، يفضل فئة على فئة أخرى لأسباب إيديولوجية أو لأغراض انتخابية، فإنه يظلم الآخرين ويعزلهم عن حركة المجتمع الذي سيغرق في العنصرية وينتشر فيه الخوف والبؤس.

وقد سجل التاريخ المعاصر مآسي إنسانية جراء توظيف بعض الأحزاب العنصرية للهوية في خطابهم السياسي وممارساتها للحكم باسمها فتظلم ملايين من المواطنين بغير ذنب اقترفوه كما وقع في ألمانيا النازية، وفي إيطاليا الفاشية!!

-كيف يمكن التعايش مع عناصر الهوية بعيدا عن الإقصاء والتفتيت والبلقنة؟

-لا شك أن الفكرة الإسلامية إذا ركزت على الجانب الثقافي والحضاري للأمة فإنها ستستقطب كل الفئات الاجتماعية بغض النظر عن أصولها العرقية واتّماؤها المذهبية واعتقاداتها الدينية.

كما أن الفكرة القومية ستستقطب كل أبناء العالم العربي عندما لا تعادي الدين، ولا تلغي العرقيات الموجودة واللغات الأصلية القديمة، فنحن في حاجة ماسة إلى تجسيد هذه الرؤية سواء على المستوى الضيق بين الأفراد أو في نطاق أوسع بين المجتمعات الإسلامية والدول العربية.

كان الإقصاء السياسي والاجتماعي والاقتصادي والديني هو السبب الرئيس في إشعال نيران الحروب المدمرة في العديد من الدول العربية والإسلامية في عصرنا الراهن.

وكان أيضا هو السبب في قيام حروب كثيرة في أوروبا قبل عصر النهضة، وكذلك في الحربين العالميتين الأولى والثانية.

وإذا نجح العالم الغربي في تغيير ذهنياته وتطوير ذاته وفرض العيش المشترك بين كل أفراد تلك المجتمعات في ظل سيادة القانون والتوافق الوطني، فإننا في العالم العربي ما زلنا نشاهد نكسة تخلق نكسة أخرى، لذلك ستظل مهمة تغيير العقلية من أصعب المهمات المنتظرة في واقعنا العربي.

ولقد صدق مالك بن نبي -رحمه الله- حينما كتب هذه الفكرة النافعة: «معرفة إنسان الحضارة وإعداده أشق كثيرا من صنع محرك أو ترويض قرد على استخدام رباط عنق».

لا يكفي أن نتكلم باستمرار عن المحافظة على الثوابت والدفاع عن المرجعية الدينية الوطنية لكي نعزز مكانة الهوية عند الناس، بل يجب أن نعلمها للأجيال وفق ما يساير روح العصر، ونستلهم منها دائما في ممارساتنا الفردية وفي أعمالنا الجماعية، القدوة والعزيمة والأمل.

حديث في الهوية¹

-في ظل الوضع السياسي الساخن والاحتجاجات التي تعيشها الجزائر، هل تسعى جهات خارجية لطمس الهوية ونشر التطرف في الجزائر باستغلال الوضع؟

-أكد أن كل الدول الكبرى التي لها مصالح اقتصادية وأطماع إستراتيجية في منطقة البحر الأبيض المتوسط مهتمة بما يحدث في الجزائر، وهي قلقة على ما ستفرزه نتائج الانتخابات الرئاسية القادمة.

ولكل دولة طريقتها في التعامل مع الوضع الراهن والوضع القادم، ولن تنهون أبدا في استغلال الظروف الجديدة للتمركز أكثر والحفاظ على امتيازاتها، وتأكيد مكانتها في السوق الجزائرية، وان اقتضى ذلك الحضور هدم مقوماتنا الثقافية التي تقاوم كل عنصر مضر لوحدة المجتمع وتماسك أفرادها.

¹ لم أسجل اسم الصحافي أو الصحافية، وكذلك عنوان الجريدة (النصر أو الشعب)، وتاريخ إصدارها.

وما نجحت الحركة الاستعمارية في القرنين الماضيين إلا بتعزيز هذه الإستراتيجية. ولم يقدر على إبطال مفعولها المدمر إلا التحرر من الموقّات الداخلية التي لا تقل ضررا على المعطلات الخارجية.

هل نجح الجزائريون في فرض أنفسهم كطبقة مثقفة وكنخبة في المجتمع الجزائري؟

-المثقف الجزائري متفرج ناقد للأحداث. ومقاوم هادئ يشاهد الحدث وينتظر أن تكتمل عناصره ليحدد موقعه ويعبّر عن رأيه أو يكشف موقفه.

وسكوت العديد من المثقفين أو كسلهم في الكتابة للتعبير عن مواقفهم من اللحظة التاريخية لا يعني عدم انخراطهم في الشأن العام أو هروبهم من مسؤوليتهم نحو المجتمع.

المثقف عندنا يتكيف باستمرار مع البيئة التي يعيش فيها، كأنه يعتبر دوره الأساس هو الدفاع عن الآراء أو القيم التي يؤمن بها، وليس إثارة الجدل حول الأسئلة المصيرية الكفيلة بتوجيه المجتمع نحو التنمية والتطور.

ولاشك أن الحراك الذي رافق عملية تنظيم الانتخابات الرئاسية منذ عام سمح للنخبة الجزائرية أن تستعيد دورها وتعبّر عن مواقفها في رابعة النهار، وتبلّغ رسالتها إلى شريحة كبيرة من المجتمع خاصة عبر وسائل الإعلام المختلفة.

وما زال أمامها مسيرة طويلة لإحداث تغيير عميق في الذهنيات وإقناع أصحاب القرار بأولوية سلطة المعرفة على سائر السلطات الأخرى.

❖ الحضارة العربية واختلاف المصطلحات الخاصة بتسميتها¹

الحضارة التي سادت في منطقة الشرق الأوسط وحملت مشعل النور للعالم في القرون الوسطى تعددت مسمياتها، فالبعض يرى انها الحضارة العربية حيث ان التوسع الذي حدث بعد مجيء الإسلام ما هو إلا فقرة في تاريخ الحضارة العربية الممتد لما قبل الاسلام بقرون، وأن هذه الحضارة قامت على أكتاف اللغة العربية ورجالها، والبعض يرى أنها الحضارة الاسلامية إذ أن العديد من البلدان ذات الحضارات السابقة شاركت فيها، وهناك العديد من العلماء والفلاسفة والأدباء والمفكرين من أصول غير عربية، بينما يمزج آخرون الاصطلاحين ويسمونها الحضارة العربية الاسلامية.

إلى أي المسميات تميل، ولماذا؟

حضارتنا هي نتاج جهود الانسان الذي عاش في فضاءها الجغرافي الفسيح بغض النظر عن أصوله الإثنية، فالعلماء والفلاسفة والأدباء والمفكرون والقادة الذين بنوا هذه الحضارة كانوا ينتمون لأصول متعددة سواء كانت عربية أو غير عربية كالفرس والأتراك والبربر والصينيين والهنود والمغول...

¹ مجلة الفيصل (الرياض/ السعودية)، حاوره: أ. صبحي موسى.

لذلك أنا أتكلّم عن الحضارة الإسلامية لما انطلق من الجهد المبذول بعد ظهور رسالة الإسلام وأنتبع تطوّرها في القرون التي جاءت من بعد، وشاركت في بنائها كل الإثنيات والقوميات والثقافات المختلفة، بينما أتحدّث عن الحضارة العربية الإسلامية إذا وضعت أيضاً في الحسبان كل ما قدمه العرب في القرون السابقة للبعثة المحمدية، أو إذا اكتفيت بالنظر إلى اللغة التي أنتج بها كل هذا الرصيد الحضاري، وهي اللغة العربية.

هل تاريخ العرب قبل الإسلام يكفي لأن نضع على أكتافه حضارة كبيرة كنتك التي سادت في العصور الوسطى؟

لا شك أن للعرب حضارة سادت قبل ظهور الإسلام، ويكفي أن أشير هنا إلى مشهد من مشاهد التحضر، وهي الكتابة التي تعتبر مرحلة متقدمة في سيرورة التمدن والتقدم. فالعرب دوّنوا حياتهم الاجتماعية وتراثهم الثقافي والأدبي ونشاطاتهم الاقتصادية في نصوص نثرية وشعرية خلّدها التاريخ ومازالت تدرس إلى يومنا هذا. غير أن ما عرفه العرب من ازدهار في مجالات مختلفة في العصور القادمة مثل منعطفاً حاسماً ومرحلة جديدة متطوّرة جداً في مسار حضارتهم. فليس هناك قطيعة تاريخية أو الاستهانة بدرجة تحضر العرب قبل الإسلام، وإنما هناك استمرارية تاريخية وتمدد في الزمن والمكان، وأدى هذا المجتمع الممتد والمنفتح والمتنوع إلى تحقيق هذا التراكم الحضاري الإنساني الذي مسّ كل مجالات حياة الناس.

هل القول بأنها حضارة إسلامية هو سعي للتركيز على تعددية واغماض للجوهر والعمق العربي؟

وصفها بالحضارة الإسلامية هو اعتراف بالتنوع الثقافي ضمن الوحدة الحضارية. هذه الثقافات المتعددة شكلت الروافد التي التقت في بحر الحضارة الإسلامية التي انطلقت في خطوتها الأولى من بلاد العرب واختار المنتسبون لها اللغة العربية لسانا لهم فضلا عن لغاتهم الأصلية.

فإن التحاق الشعوب المختلفة بمسيرة الدولة الإسلامية والالتقاء لحضارتها والإسهام في ترقيتها وتطويرها قام على الرضا النفسية والقناعة الذهنية والدينية بتلك المنطلقات ولم تقم على الضغط والقهر والغلبة. وهكذا كان الاقبال على تقديم قيم مضافة إلى هذه الحضارة كما فعل سيبويه والبخاري والطبري والفارابي والخوارزمي والرازي والبيروني وابن سينا والزمخشري وابن معطي الزواوي...، والالتقاء إليهما مع المحافظة على بعض الخصوصيات الثقافية والدينية دليلا قاطعا على اندماج كل تلك الشعوب والقوميات في هذه الحضارة الكبرى المشتركة.

هل حضور واحد من المسميات أو المصطلحات التي عرفت بها هذه الحضارة يعني غياب القدرات التي يعبر عنها المسمى الآخر؟

الحضارة هي واحدة لكن تصنيفها يختلف على حسب الزاوية التي يركز عليها الانسان وفق اعتبارات مختلفة وقراءات متباينة لتراثها وتأويلات للسياسات التاريخية التي رافقت المراحل المختلفة لتأسيسها وبنائها.

ولا أرى في حضور واحد من المسميات أو مغالبة مصطلحات معينة على الأخرى ما ينقص من شمولية هذه الحضارة وعظمتها أو ما يقلص من إسهاماتها الانسانية في العصور السابقة.

فالعالم الذي كان ينتج فكره أو الأديب الذي كان يؤلف كتبه أو القائد الذي كان يفتح البلدان أو يدافع عن الديار كان يفعل كل هذا وهو يفعل ذلك ضمن رؤية واضحة وهي تتمثل في بناء حضارة واحدة تتسع لجميع المنتمين إليها شرقا وغربا. والتحدي القائم الآن هو استمرارية عطاء الحضارة العربية والإسلامية في الوقت الراهن وفي المستقبل بجوهر واحد بغض النظر عن تعدد أو اختلاف المظهر. فالأوروبيون على سبيل المثال رغم تعدد لغاتهم وأعراقهم واختلاف مذاهبهم الدينية وتنافسهم الاقتصادي الشديد فيما بينهم فإنهم يعتبرون أنفسهم أصحاب حضارة واحدة، ويتفوقون على أن مواصلة تقدمهم وهيمتهم التكنولوجية والاقتصادية والثقافية لن تكون إلا في التكتل والعمل المشترك الموحد.

في تقديرك ما سبب ظهور مثل هذه التسميات الآن، هل هو الجهد العلمي الباحث عن توصيف أدق، أم أن الصراعات الحديثة هي التي أَلقت بظلالها على الماضي؟

لا شك أن الصراعات الأيديولوجية القائمة بين التيارات المختلفة الموجودة في العالم العربي والإسلامي، كانت وراء كل هذه الاختلافات في وجهات النظر حول قراءة التاريخ وتفسيره ومساراته وتصنيف التراث وتأويله.

فهناك علماء ومفكرين حصروا الحضارة في بعدها اللغوي، فيفضلون دائما مصطلح الحضارة العربية لأن اللغة العربية هي التي كانت لغة المبدعين والمكتشفين والمخترعين. وهناك من حصر القضية في العامل الجغرافي لأنها ممتدة في فضاءات تقع خارج خريطة العالم العربي لتشمل مناطق شاسعة من آسيا الوسطى والجنوبية الشرقية، وجنوب أوروبا وشمال إفريقيا... الخ.

ومنهم من حصرها في العامل الديني، فيرى أنها قبل كل شيء هي حضارة إسلامية باعتبار الإسلام هو روح هذه الحركة التاريخية ومحركها الدائم، ولكن هذه التسمية تقصي في نظر الذين يعارضونها فئات اجتماعية أخرى كالمسيحيين واليهود الذين ساهموا بقسط وفير في بناء هذه الحضارة. فالأنسب إذاً هو جمع كل هذه الإعتبارات وغيرها وتسمية حضارتنا بالحضارة العربية والإسلامية.

تراثنا الجزائري: الواقع والمأمول¹

كيف ترون واقع التراث الإسلامي في الجزائر؟

التراث الجزائري الإسلامي بمعنى ما أنتجه العقل الجزائري في مختلف المعارف منذ الفتح الإسلامي إلى اليوم، كان دائما محل اهتمام الباحثين الجزائريين، وأذكر هنا العلماء الرواد أمثال: الدكتور محمد بن أبي شنب، والأستاذ نور الدين عبد القادر، والأستاذ محمد الحاج صدوق، والأستاذ أبو بكر عبد السلام وغيرهم من الباحثين الذين حققوا العديد من كتب التراث الجزائري وأقذوها من الضياع والنسيان.

وأذكر أيضا مشروع "ذخائر المغرب العربي" الذي كانت تشرف عليه المؤسسة الوطنية للكتاب وساهم فيه صفوة الباحثين الجزائريين أمثال الأساتذة: أبو القاسم سعد الله، عبد الحميد حاجيات، المهدي البوعبدلي، يحي بوعزيز، إسماعيل العربي، راجح بونار...، وقد أصدروا مجموعة من الأعمال الهامة في الأدب والتاريخ والتراجم والفقهاء...

وكذلك أعدت المكتبة الوطنية مجموعة من الفهارس التي ساعدت كثيرا الباحثين في إنجاز أعمالهم خاصة في عهد الأستاذ محمود بوعياض والأستاذ عبد الكريم بجاجة. كما قام المركز الوطني للدراسات التاريخية في السبعينيات والثمانينات القرن الماضي بنشر

¹ حاوره عبد الحكيم قماز من جريدة الخبر.

التراث خاصة الوثائق التاريخية العثمانية التي أحضرها الأستاذ أحمد توفيق المدني من تركيا لما كان سفيرا للجزائر في أقرة. غير أن كل هذه الجهود التي أشرت إليها توقفت مع توقف بعض هذه المؤسسات العلمية، وتحتاج اليوم قبل الغد كل تلك المشاريع إلى من يعيد إليها الروح من جديد ويستمر العمل الجبار الذي قام به العلماء الجزائريون في القرن الماضي. وهذا العمل يتطلب جهود الباحثين وكذلك دعم المؤسسات المعنية بالتراث بخاصة مراكز المخطوطات الموجودة عندنا والمكتبة الوطنية، والجامعات ومركز الأرشيف الوطني... الخ.

ما مدى إقبال الباحثين الجزائريين على إحياء هذا التراث؟

الباحثون الجزائريون الأكاديميون اهتموا بدراسة التراث ضمن البحث العلمي ونشر المعرفة وتعميمها، وفي إطار الترقيات العلمية أو المهنية كتحضير رسائل الماجستير والدكتوراه أو في إطار إعداد ملف التأهيل العلمي والأستاذية. ففي هذا السياق تم نشر مقالات وبحوث وكتب حول التراث وتم تحقيق العديد من المخطوطات. كما ظهر في السنوات العشر الأخيرة عدد من الباحثين الهواة من خارج العالم الأكاديمي إشتغلوا بإحياء التراث وتحقيق المخطوطات ونشر نصوص مغمورة من رسائل وخطب ومقالات منشورة سابقا في الجرائد المفقودة والمجلات القديمة. ولا بد أن تطلق مشاريع كبرى في هذا المجال على غرار مشروع "ذخائر المغرب العربي" الذي أشرت إليه من قبل، وتحفيز الباحثين بإعطائهم منح مالية للتفرغ للبحث والتحقيق، وإنشاء جوائز تقديرية لأحسن كتاب محقق أو بحث في مجال إحياء التراث.

وهل تعتقدون أنه بإمكان قطاع الشؤون الدينية وكليات ومعاهد العلوم الإسلامية إحياء هذا التراث في الجزائر؟

لقد قامت وزارة الشؤون الدينية والأوقاف بنشر العديد من كتب التراث منذ السبعينيات في عهد الوزير الأستاذ مولود قاسم نایت بلقاسم وأذكر هنا على سبيل المثال نموذجا من منشوراتها الذي أعده الشيخ المهدي البوعبدلي وهو: "الثغر الجاني في ابتسام الثغر الوهراني" للشيخ أحمد بن محمد الراشدي. وفي عهد الوزير الشيخ عبد الرحمان شيبان أصدرت هذه الوزارة آثار الإمام عبد الحميد بن باديس. وتواصلت منشوراتها لكنها بخطوات ثقيلة، وعرفت أوجها في عهد الدكتور أبو عبد الله غلام الله الذي تزامن مع المناسبات الثقافية الكبرى مثل الجزائر عاصمة الثقافة العربية في عام 2007، وتلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية في عام 2011، وقسنطينة عاصمة الثقافة العربية في سنة 2016. غير أن هذا العمل لم يكن دائما مبنيا على أسس علمية سواء من حيث اختيار الموضوعات المناسبة أو صرامة التحقيق ونوعية الانجاز. أما الكليات والمعاهد الإسلامية فجهودها محدودة في هذا المجال على العكس مما نلاحظه في كليات البلدان العربية الأخرى التي تولي اهتماما كبيرا للتراث تحقيا ونشرا من إعداد أساتذتها.

-كيف ترون جهود المستشرقين في تناول التراث الإسلامي، خاصة التراث الإسلامي الجزائري؟

المستشرقون اهتموا بترائنا دراسة وتحقيقا لدوافع مختلفة، فمنها ما له صلة بدم المشروع الإستعماري وترسيخ أقدامه في القطر الجزائري للأبد، ومنها ما له صلة

بالبحث العلمي الخالص إذ قام العديد من المستشرقين سواء بجهود فردية أو ضمن الجمعيات العلمية التي ظهرت في فرنسا ولها فروع في الجزائر أو التي نشأت مباشرة في بلدنا مثل لجنة إكتشاف الجزائر (1839)، الجمعية الأثرية بقسنطينة (1852) والجمعية التاريخية الجزائرية (1856) والجمعية الجغرافية لإقليم وهران (1878) بالاستيلاء على التراث الجزائري الموجود في الزوايا والمدارس وعند العائلات العاملة...، وتم فهرسته وتحقيق الكثير من المخطوطات وترجمة النصوص إلى اللغة الفرنسية. وازدادت هذه الأعمال مع إنشاء جامعة الجزائر ومعاهدها الأدبية والتاريخية والإسلامية التي اعتنت بتحقيق التراث العربي الإسلامي الجزائري وترجمته إلى اللغة الفرنسية لأهداف استعمارية تارة ولأهداف علمية تارة أخرى على حسب القنوات الايديولوجية للمستعربين والمستشرقين وانتماءاتهم المؤسساتية أمثال: بواسوني، شيربونو، بيروجر، ماسي، باسيه، بيل، بيرون، موتيلانسكي، لوسيان...الخ.

ما أثر غياب كثير من تراثنا الإسلامي المسروق من قبل المستعمر والموجود في كبرى الجامعات الغربية؟

هناك جانبان أساسيان: الجانب العلمي والجانب السيادي إن صح التعبير. فبخصوص الجانب العلمي لا بد أن نعترف بأن هذا التراث المسروق كان دائماً محفوظاً في مراكز البحث والوثائق والمكتبات الوطنية وفق شروط الحفظ بدرجات عالية. كما أن هذه المخطوطات لم تمنع أبداً عن الباحثين الذين يطلبون تصويرها من أجل الدراسة والتحقيق والنشر.

أما من الناحية السيادية والأخلاقية فلا بد أن تعود الأشياء المسروقة إلى أهلها مهما طال الزمن أو قصر. تعود الأصول إلى أصحابها وتحتفظ المؤسسات الدولية الناهبة بحق النسخة المصوّرة نظير ما قدمته من خدمات للتراث المسروق. وكل هذه المخطوطات مفرسة يسهل تحديد المخطوطات الجزائرية في تلك المراكز والمكتبات وبالتالي يحق المطالبة باسترجاعها ضمن الكنوز الكثيرة التي نهبها المستعمر خلال قرن واثنين وثلاثين سنة من الاحتلال والاستيطان والصراع الحضاري والمواجهة الثقافية.

﴿التجدد الحضاري إحياء لعناصر القوة الكامنة في التاريخ﴾¹

لا جدال في أن التاريخ يمثل رافدًا مهمًّا من روافد الوعي والمعرفة، ورصيدًا لأي أمة تمتح منه زادًا لحاضرها ومستقبلها.. ونحن المسلمين في أمس الحاجة لإعادة قراءة تاريخنا، ومراجعة ما يتصل به من قضايا الفكر والنهوض والتجدد الحضاري؛ حتى نكون على بصيرة من خطواتنا ومسيرتنا.

وفي هذا الحوار نتوقف مع الأكاديمي الجزائري الدكتور مولود عويمر، لنقلب معه صفحات فكرية وأوراقًا حضارية تتصل بالتاريخ والحضارة وإشكالياتها.

-كيف ترون مفهوم "الحضارة الإسلامية"؟

الحضارة هي نتاج الإنسان في الزمان والمكان وفق رؤية فكرية خاصة. وإذا حصرنا هذا الجهد في رقعة جغرافية معينة وفي عصر معين وفق رؤية معينة، نسبنا هذا الجهد البشري إلى هذه المعالم الثلاث. فقلنا على سبيل المثال: الحضارة الإسلامية في بغداد في العصر العباسي أو الحضارة المسيحية في روما....

¹ موقع إسلام أون لاين، 27 جانفي 2020. حاوره الدكتور السنوسي محمد السنوسي (كاتب وإعلامي مصري).

وهكذا ظهرت حضارات عديدة عبر العصور وفي أماكن مختلفة وفق رؤى متعددة في مصر والعراق والصين والهند... وتضمنت كتب التاريخ حروباً كثيرة بين هذه الحضارات لأسباب سياسية أو اقتصادية أو دينية وغيرها من الأسباب التي ذكرها المؤرخون. وقد ترتب عن ذلك زوال حضارات وبقاء حضارات أخرى.

والحضارة الإسلامية التي كانت دائماً متصلة بالدين الإسلامي وشرائعه وقيمه احتفظت على خصوصياتها وشخصيتها وكيانها رغم ما تعرضت له من محن وحروب ودمار عبر العصور، وما زالت تقاوم دائماً من يجارها، وتواصل سيرها نحو المستقبل.

ما هي أبرز مميزات هذه الحضارة؟

-تميّزت الحضارة الإسلامية بالحيوية والمرونة، وقد استطاعت أن تنتشر بسرعة كبيرة في العالم حاملة معها تراثها الفكري وإنتاجها العلمي ولغتها العربية. واحترمت في كل مرة الخصوصيات الثقافية للشعوب التي وصلت إليها، فكرست الوحدة بين المسلمين وحافظت على تنوعهم.

بل إن هذه الحضارة ازدهرت في الحواضر البعيدة عن مهبط الوحي ومركز الدولة الأولى، أي مكة والمدينة، إذ عرفت أوجها في دمشق وبغداد والقاهرة وطشقند وسمرقند وأصفهان والقيروان وبجاية وتلمسان وفاس وغرناطة والقسطنطينية... الخ.

ولقد عاش الناس في رحاب الحضارة الإسلامية في نسيج اجتماعي قوي واستقرار سياسي متواصل، وثناء ثقافي مزدهر ورخاء اقتصادي عام. وكلما صار خلل في مقوماتها بانتشار الخمول والانشقاق والغلو اضطربت الأحوال وكثرت الأهوال.

هل الحضارة الإسلامية قادرة على التجدد؟ وكيف ذلك؟

الحضارة الإسلامية بقيت إلى اليوم، بينما اندثرت حضارات قديمة كثيرة كما بين ذلك المؤرخ الإنجليزي الشهير أرنولد توينبي (1889-1975) في كتابه النفيس: "دراسة للتاريخ". والسر في بقائها يتمثل في طبيعتها ومميزاتها التي توفر لها شروط البقاء فضلا عن تكيفها مع عناصر التجدد الطارئة عليها خلال مراحل تطورها.

وهي صاحبة أكبر الديانات السماوية المنتشرة في العالم، وتملك لغة مشتركة عالمية وهي العربية، وتزخر بالرصيد الحضاري المتنوع والمتفتح، وتحظى بالثروات الطبيعية التي تؤمن لها الأمن والرخاء المادي ووسائل أداء رسالتها الإنسانية؛ فإذا وعى المسلمون هذه المؤهلات، واستثمروا في هذه القدرات حافظوا على رصيدهم الحضاري واستأنفوا دورهم المنشود وواصلوا بناء صروح حضارية جديدة.

ما هو دور "التاريخ" في التجدد الحضاري المأمول؟

التجدد الحضاري في كل التجارب الإنسانية هو قبل كل شيء حركة إحياء لعناصر القوة الكامنة في أغوار التاريخ وتحيينها وتمديدها بمصادر القوة المتوفرة في الواقع من الأمل والطموح والعزيمة والعمل.

وأشرح هذه الفكرة بالمثل التالي: كل سائق يحتاج إلى النظر إلى الخلف حتى ينطلق بسيارته في أمان. وهو يضطر في كل مرة أن ينظر إلى المرآة الأمامية والخلفية ليغير اتجاهه أو يحدّد سرعته.

فهذه الحركة الضرورية لسلامة المرور والسير قُدمًا قد يعتبرها السائق في البداية أمرًا متعبًا لكن مع الوقت يتدرب عليها ويقوم بها بشكل تلقاء، ولا يجيد عنها بل إذا حاد عنها وقع المكروه.

هكذا يجب أن تكون معاملتنا مع التاريخ، نتقدم ونسير نحو الأمام لكن بدراية وبصيرة نستمدّها من ماضيها، ونتزوّد بالإرادة والحزم والإقدام والعمل في حاضرنا، ونضع الثقة في أنفسنا ونتفاعل خيرا في المستقبل.

يجب على الإنسان المسلم أن يستشعر دائما بأنه ينتمي إلى حضارة عريقة ساهمت في تقدم البشرية، ومازالت آثارها قائمة إلى اليوم في البلدان العربية والإسلامية وفي صقلية في جنوب إيطاليا وفي الأندلس، ويجب أن يدرك أيضا أن الحضارة تسير في دورة مستمرة، تنتقل من الشعوب والأمم التي استنفذت دورتها إلى الشعوب والأمم الناهضة. وسيأتي دور الريادة والقيادة للمسلمين حينما يستوفون شروط الإقلاع الحضاري.

-كيف ننتقل في علاقتنا مع التاريخ من التعامل المتحفي، إلى التعامل الحي؛ أي باعتبار التاريخ نهرا يجري، لا بركة ماء راكدة؟

-كل الشعوب تعرف فترات الخمول التاريخي، وتشعر بثقل الزمن. وهذا ما عبر عنه المؤرخ الفرنسي جاك لوغوف (1924-2014) بـ"العصر الوسيط الطويل"، وعبر عنه المؤرخ البريطاني إيريك هوبسباوم (1917-2012) بـ"القرن العشرين المتأخر".

يستمد التاريخ قوته وحيويته من حركة المجتمع وتفاعل الأفكار وكذلك من نشاط المؤرخ بما يقدمه من نصوص تاريخية ومواقف شريفة في المجتمع بإسهامه في رفع معنويات أفراده، وإحياء رموز النجاح، واستحضار قيم التميّز، وبت روح البناء. ففي اللحظة الفاصلة والحاسمة يتصالح الناس مع ماضيهم لأنه أصبح مصدرا للإلهام ومحفّزا للعمل وضامنا للتقدم.

وأذكر هنا نموذجا واحدا. في عام 1870 انهزمت الإمبراطورية الفرنسية أمام الدولة الألمانية الفنية، فانتشر الشعور بالخيبة عند الشعب الفرنسي، والإحساس بمرارة النكسة لدى النخبة الفرنسية. أما المؤرخ إرنست لافيس (1842-1922) فقد انقطع عن العمل، وسافر إلى ألمانيا واستقر فيها 3 سنوات من أجل الإجابة عن الإشكالية التالية: لماذا انهزمت فرنسا وانتصرت ألمانيا؟

وجمع خلال إقامته في هذا البلد المنتصر كل ما له صلة بتاريخ وواقع إمارة بروسيا التي كان لها الفضل في توحيد الإمارات الألمانية الأخرى وتأسيس ألمانيا الحديثة. وقدم هذا العمل كأطروحة دكتوراه في التاريخ جامعة باريس في عام 1875 وبيّن فيها مصادر القوة الألمانية وعلى رأسها جودة التعليم والاهتمام ببناء الإنسان الجديد الفعال.

إن استحضار التاريخ كان دائما حاضرا في المنعرجات وفترات التحوّل عند المجتمعات الحية التي تستعين بمؤرخيها لاستحضار الماضي لفهم الحاضر والاستشراف للمستقبل، بينما نحن نستحضر التاريخ في مناسبات محددة ونحتفل به ثم ننسى دروسه ولا نتعظ بعبه الساطعة.

ولا يمكن أن نستغرب من حضور المؤرخين في وسائل الإعلام الغربية وإسهامهم في توعية شعوبهم وتوجيه رأيها لتتخذ مواقفها على ضوء معطيات واضحة. وأذكر هنا: برنارد لويس (1916-2018) وبول كينيدي (1945) في الولايات المتحدة الأمريكية، ورنيه ريموند (1918-2007) ومارك فيرو (1924) وجاك لوغوف في فرنسا، وإيريك هوبسباوم في بريطانيا... الخ.

هل أعطى القرآن الكريم للتاريخ معنى مميّزاً؟

-القرآن هو كتاب سماوي يتضمن أيضاً قصص الشعوب والأمم السابقة، وفترة البعثة والرسالة المحمدية. فمن هذا الجانب هو مصدر للمؤرخين الذين يشتغلون على التاريخ القديم وصدر الإسلام. وقد أثبتت البحوث الحديثة في مجالات متعددة خاصة في ميدان علم الآثار تطابق تلك المعلومات مع ما توصل إليه العلماء في العصر الحديث والراهن.

التاريخ هو حجة علمية للاستدلال في قضايا اجتماعية وإنسانية، ومنهج لإقناع الآخر بالبرهان، وليس باعتباره فقط مجموعة من الأحداث الماضية والأخبار الغابرة عن الأيام الحالية.

وتدوين القرآن لتلك الأحداث الغابرة واستحضارها في حياة المسلمين في كل عصر هو تثبيت لها وإضفاء صفة الواقعة التاريخية عليها بكل ما تحتويه من مواصفات دقيقة وحقيقية. ومن جهة أخرى يقدم القرآن منهجاً في النظر إلى الماضي وأهميته تفسيره وضرورة استلهام منه العبر والتقييم.

هل المناهج العربية الدراسية ترسم ذهنية صحيحة عن تاريخنا؟ وكيف نصح المسار؟

لم يتوقف المؤرخون والمفكرون العرب عن الحديث عن ضرورة تجديد المناهج الدراسية العربية سواء تعلق الأمر بالتاريخ أو العلوم الأخرى من أجل الولوج إلى عصر التقدم.

والدعوة كانت تلح على إعادة كتابة التاريخ وفق الطرق الحديثة ليس فقط من جانبه الشكلي بتحديث الوسائط البيداغوجية التي هي ضرورية، وإنما أيضا بتطبيق المنهج العلمي الحديث وأدواته التفكيكية والتحليلية والتركيبية.

وأنا شخصا لا أعارض كل هذه الخطوات العلمية، وإنما يجب الأخذ بعين الاعتبار الخصوصيات الثقافية والنفسية لمجتمعاتنا العربية والإسلامية ولا نطبقها بحذافيرها خاصة في جانب تفسير الأحداث وتأويلها.

مفكر الحضارة مالك بن نبي له رؤية متميزة عن التاريخ.. ما أبرز معالمها؟

-الفيلسوف أو المفكر لا يعود إلى التاريخ ليكتب قصته، أو يؤرخ لفترة معينة وإنما يتعامل مع التاريخ باعتباره سندا للفكرة التي طرحها وإن اقتضى ذلك تأويله وتأويلا خاصا.

وربما يعود إلى الذاكرة الجماعية أو الأسطورة لإثبات صحة فكرته إذا لم يجد في التاريخ ما يدعمه من حجج دامغة. بينما المؤرخ ينطلق من الحدث التاريخي الموجود ليضع له فلسفة أو نظرية؛ فمقاربة الفيلسوف تختلف عن مقاربة المؤرخ.

وهذه الفكرة تنطبق على مالك بن نبي (1905-1973) الذي كان مفكرا ولم يكن مؤرخا، لذلك نظر إلى التاريخ في كليته وليس في جزئياته، ووضع على ضوءها مشروعه الفكري "مشكلات الحضارة"، ولخص قرونا من تاريخ الإسلام في المخطط البياني حيث قسمه إلى 3 مراحل: مرحلة الروح، مرحلة العقل، ومرحلة الغريزة، ودرس كل مرحلة بمميزاتهما.

ولقد سبقه علماء آخرون إلى تفسير التاريخ وتقسيمه إلى 3 مراحل أذكر منهم: ابن خلدون (1332-1406) الذي قسم التاريخ إلى 3 مراحل وهي: البداوة، والتحضر، والتدهور. وكذلك قسمها الفيلسوف الإيطالي فيكو (1668-1744) إلى: الآلهة، والأبطال، والإنسان.

وثمة أيضا اجتهادات العلماء المعاصرين لبن نبي مثل المفكر الألماني شبنغلر (1880-1936) ... لكن ما يميّز بن نبي عن هؤلاء كلهم هو وضوح أفكاره وعمقها، وذلك بفضل استعانتته بالرياضيات والمنطق العملي في طرحه وتحليله.

وبناء على دراسة الأعمال التاريخية الكبرى التي قرأها مالك بن نبي توصل إلى وضع نظرية في الحضارة التي لخصها في معادلة رياضية جمعت بين 3 عناصر، وهي: الإنسان والوقت والتراب.

وجعل الفكرة الدينية أو العقيدة هي المحرك للعناصر الثلاثة. وكثيرا ما اعتبر العامل الديني أهم العوامل في حركة التاريخ، وأحيانا فسر الحدث بدوافع نفسية ذات خلفيات دينية أو ثقافية.

-كيف ترون جهود المستشرقين في تناول التراث الإسلامي، السلبيات والإيجابيات؟

المستشرقون لا ينتمون إلى مدرسة واحدة أو مذهب واحد، فمَنهم من تخصص في دراسة الشرق ليضع علمه في خدمة المشروع الاستعماري الغربي، وأذكر هنا على سبيل المثال: المستشرق الهولندي سنوك هورخرونيه (1857-1936) والمستشرق الألماني البارون ماكس فون أوبنهايم (1860-1946)، وكذلك المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون (1883-1962) في بدايات مسيرته العلمية.

بينما هناك مستشرقون خدموا التراث العربي الإسلامي خدمة جلييلة بتحقيق كتب لا تعد ولا تحصى وترجمتها إلى اللغات الأوروبية ودافعوا عن إسهام المسلمين في الحضارة الإنسانية، وأذكر هنا للقارئ على سبيل المثال: المستشرق الهولندي أرنو جان فنسنك (1882-1939) الذي وضع المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي الشريف قرن قبل ظهور الكمبيوتر واختراع المواقع الإلكترونية المعروفة في مجال البحث.

كما يوجد مستشرقون لم يكتفوا بكتابة تاريخنا وإنصافنا في أعمالهم بل دافعوا عن القضايا العربية المعاصرة كثورة التحرير الجزائرية والقضية الفلسطينية، وأذكر منهم الفرنسيين مكسيم رودنسون (1915-2004) وجاك بيرك (1910-1995)،

والأمريكي جون إسبوسينو (1940)، والألمانيين زيغريد هونكه (1913-1999) وأنا ماري شميل (1922-2003)...الخ.

وهناك أيضا من خطى خطوات أكثر نحو الأمام واعتنق الإسلام مثل المستشرقة الفرنسية الدكتورة إيفا دوفيتري ميروفيتش (1909-1999) التي أوصلتها دراستها العميقة للإسلام إلى اعتناق هذا الدين الحنيف في سنة 1950، وألفت عدة كتب في الفكر الإسلامي ترجمت بعضها إلى لغات عالمية متعددة.

ما أثر غياب كثير من الوثائق والحقائق عن تاريخنا المعاصر، في عدم تكوين رؤية صحيحة عن واقعنا؛ وبالتالي في محاولة الإنعتاق من أزمتنا الحضارية الراهنة؟

-الأرشييف الموجود في الدول العربية جله غير مسموح بالاطلاع عليه، فالباحث الذي يريد كتابة تاريخ المغرب العربي يضطر للسفر إلى فرنسا والبحث في مراكز أرشييفها، ومن يريد كتابة تاريخ المشرق العربي يضطر إلى السفر إلى بريطانيا.

وهنا تطرح مشكلتان أساسيتان: المشكلة الأولى تكمن في مدى إمكانية الباحث في الحصول عليها والسماح بقراءتها والاستفادة منها.

أما المشكلة الثانية فإنها تكمن في نوعية الوثائق ومصادقيتها حيث أنها تعبر عن وجهة نظر من كتبها من رجال الإدارة والعسكر والأمن.

وفي كل الحالات، مازال تاريخنا المعاصر يكتب من خلال الوثائق والأرشييف الموجودة عند الدول المستعمرة السابقة.

ولابد أن أشير أيضا هنا إلى رفض العديد من العائلات العربية التي تحتفظ بوثائق أبنائها الأعلام في مجالات مختلفة، ولا ترغب في إيداعها في مراكز الوثائق الوطنية أو تقديمها للباحثين ليستفيدوا منها، عكس ما هو سائد في الدول المتقدمة حيث تحرص العائلات الكبرى على تحويل بعض بيوتها إلى متاحف أو مراكز بحوث تسلم لها كل وثائقها ليستغل عليها الباحثون، وتخصّ جوائز تشجيعية لمن يكتب بحثا أو كتابا نفيسا معتمدا على هذا الرصيد الوثائقي.

غير أننا لا ننفي أبدا إقدام بعض الباحثين بالتعاون مع عدد من العائلات- على نشر الوثائق النادرة لأعلامنا المعاصرين، وهي مبادرات تدعم حقا البحث التاريخي، وتحفز المؤرخين على الكتابة التاريخية بنظرات جديدة.

ما أبرز الأدوات اللازمة لصناعة مؤرخ معاصر ينتمي للمدرسة الخلدونية؟

قدم العلامة عبد الرحمن بن خلدون في كتابه "المقدمة" الذي ألفه في قلعة بني سلامة الواقعة بالغرب الجزائري بين 1375 و1378م، وصفة علمية لكل من يهتم بقراءة التاريخ أو يشتغل بالكتابة التاريخية.

ولم تكن إسهاماته الإبداعية مقتصرة على تحرير التاريخ وتعريفه تعريفا جديدا بوصفه علما قائما بذاته، وفنا متصلا بالجماليات من الذوق والشغف والخيال، وإنما وضع أيضا منهجا تقديرا لكتابته بصورة واضحة وموضوعية.

ولقد اعترف له بهذا الفضل العلمي كل من اشتغل على تراثه من العلماء العرب والمسلمين: علي عبد الواحد وافي (1901-1991)، وعبد الله شريط (1921-

(2010)، وعماد الدين خليل (1941)، وغيرهم، أو من العلماء الغربيين: البارون دي سلان (1801-1879)، وفرانز روزنتال (1914-2003) وإيف لاكوست (1929)، وغيرهم.

غير أن المؤرخين العرب والمسلمين لم يستفيدوا كثيرا مما تركه ابن خلدون، بينما استفاد المؤرخون الغربيون مما كتبه مؤرخوهم العمالقة وواضعو المنهج التاريخي المعاصر مثل المؤرخ الألماني ليوبولد فون رنكه (1795-1886) والمؤرخين الفرنسيين مارك بلوك (1886-1944) وفرناند بروديل (1902-1985)...الخ.

وصناعة المؤرخ المعاصر لا يعني القطيعة مع النظريات والمناهج القديمة وإنما هنالك مواصفات أخلاقية وعلمية ثابتة وأخرى متجددة يلتزم بها المؤرخ في كل عصر ليؤدي مهنته، ويقوم برسالته على أحسن وجه.

وأخصها هنا في الكلمات التالية التي اعتبرها بمثابة دفتر شروط مهنة المؤرخ: الأمانة، المصداقية، العزيمة، والجدية، والتجديد، والحس النقدي، والخيال الواسع، واللغة السليمة، والعمل المستمر، والإصرار على النجاح...الخ.

ولا يمكن أن تحقق هذه المواصفات كما ينبغي وكما نطمح إلا إذا تم توفير البيئة المساعدة على الإبداع وصقل المواهب من توفير الحرية الفكرية وإمكانيات البحث العلمي ووسائل النشر والترويج.

﴿التاريخ المجري تخصص حديث للتعلم في الثورة التحريرية﴾¹

أشار الدكتور مولود عويمر في حديث له مع جريدة البصائر الجزائرية إلى التخصص الجديد للبحث التاريخي وما يسمى بالتاريخ المجري الذي من خلاله يركز فيه الباحث على الجوانب الدقيقة والمحددة زمنيا من أجل البحث والتحليل والتعمق في دراسة الزوايا التاريخية بشكل كامل... وأكد الدكتور أن ترقية وتطوير البحث التاريخي يحتاج إلى حرية التعبير وتوفير وسائل النشر إضافة إلى دعم حركة الترجمة مع مكافأة الباحثين المنتجين.

حظيت الثورة التحريرية المباركة باهتمام كبير من قبل الباحثين والإعلام من خلال البرامج والأفلام الوثائقية والسينمائية ومن خلال الأبحاث والدراسات الوطنية وحتى من قبل الباحثين الأجانب، حدثنا دكتور عن سبب وسر الاهتمام الكبير بهذه المرحلة التاريخية المجيدة؟

إن اهتمام الأجانب من غير الفرنسيين بالثورة التحريرية نابع من قناعتهم بالدور الفعال الذي قامت به في حركة التحرر من الظاهرة الاستعمارية الحديثة، وكذلك القيم الانسانية التي مثلتها كالتضحية القصوى للشعب الجزائري في سبيل الحرية والاستقلال.

¹ البصائر، 2 نوفمبر 2020، حاورته: فاطمة طاهي.

مثال صمود المرأة الجزائرية الذي تجسد في شخصية جميلة بوحيرد على سبيل المثال وما رافقه من تعبئة دولية في مجال حقوق الانسان والإعلام والسينما والشعر... من أجل اطلاق سراحها، كان صفحة مشرقة في سجل العلاقات الإنسانية بغض النظر عن الانتماءات الدينية والأيدولوجية والعرقية والثقافية.

الثورة الجزائرية هي من أكبر الثورات في التاريخ الحديث والمعاصر، استهدفت تحرير الأرض وترسيخ كرامة الإنسان بوسائل محدودة، وقد حققت أهدافها بثمن غال جدا.

- هل فيه اهتمام من قبل مراكز البحث الجزائرية ومن قبل الباحثين لتوثيقها لتكون مرجعا للناس؟

-لا شك في ذلك. فالثورة التحريرية أصبحت منذ سنوات موضوعا للبحث العلمي خاصة في الجامعة حيث تقدم فيها الرسائل والأطروحات، وتنظم في رحابها الملتقيات والندوات حول المجاهدين المعروفين والمغمورين وكذلك المحطات الكبرى في الثورة. ونشرت العديد من هذه الأعمال وصارت مرجعا للباحثين والطلبة والمهتمين بتاريخنا المعاصر.

كما أنجزت أعمال تاريخية أخرى خارج أسوار الجامعة، وهي لا تقل أهمية عن الأعمال الأخرى إذ اعتمدت أيضا على الأرشيف واستفادت من الشهادات الحية للمجاهدين. ولا تزال مسيرة البحث مستمرة وتكشف باستمرار صفحات من البطولة الانسانية ونماذج من الكفاح الوطني.

كل هذه الجهود العلمية تهدف إلى توثيق الثورة الجزائرية وتحرير تاريخها من الدراسات الأجنبية خاصة المدرسة التاريخية الفرنسية التي احتكرت البحث في هذا المجال لفترة

طويلة، وكانت تؤثر بذلك على كل باحث جزائري أو أجنبي يقدم على دراسة هذه الثورة التي لم تنصفها دائما تلك الأقلام الفرنسية.

الباحثون الأجانب المهتمون بثورتنا يقصدون الجامعات الفرنسية بهذا الغرض، ويعتمدون على كتب المؤرخين الفرنسيين، وينقلون وجهات نظرهم في غياب البحث التاريخي في الجزائر في الفترات السابقة أو ضعف مردوده.

وللأسف، لم نقضي بعد على هذا الخلل رغم كل الجهود المبذولة، لكننا نقصنا منه بعض الضرر بفضل ما نشر في السنوات الأخيرة من الكتب حول الثورة الجزائرية وما صدر من مذكرات قادتها.

- وماذا عن معوقات البحث العلمي حول الثورة الجزائرية؟

هناك معوقات عديدة ولعل من أبرزها نقص الوثائق والأرشيف أو قل صعوبة الولوج إليها والاستفادة منها سواء في الجزائر أو في فرنسا أو في الدول الأخرى التي كان فيها نشاط كبير لقادة الثورة مثل مصر وتونس والمغرب وألمانيا وسويسرا....

كما أن البحث التاريخي يحتاج إلى البيئة المناسبة من حرية التعبير وتوفير وسائل النشر ودعم حركة الترجمة ومكافأة الباحثين المنتجين، والترويج للثقافة التاريخية في وسائل الإعلام المختلفة.

كل هذه الشروط غير متوفرة بالحجم المطلوب، فالنشر على سبيل المثال مازال عائقا يثبّط الباحثين الذين يبدعون ويكتبون ولكن إنتاجهم لا يصل إلى القارئ عبر الكتب أو المجلات أو الجمعيات التاريخية والنوادي الثقافية.

- حدثنا عن مدى مساهمة الباحثين في تطوير البحث التاريخي على المستوى العالمي؟

- يهتم الباحثون الأجانب بالثورة الجزائرية للاعتبارات التي ذكرتها في بداية هذا الحوار. وقد صدرت كتب وبحوث كثيرة خارج الجزائر تناولت الثورة التحريرية من جوانبها المختلفة سواء في الجامعات العربية أو في الجامعات الأوروبية والأمريكية والروسية. وأذكر هنا جهود الدكتور أبو القاسم سعد الله الذي رصد الأطروحات الأمريكية، والدكتور علاوة عمارة الذي رصد الأطروحات الفرنسية... كما نشرت ببلوغرافية عن البحوث المنشورة في المجالات العربية حول الثورة الجزائرية.

وتتميز تلك الأطروحات الجامعية والبحوث الأجنبية فضلا عن رصانتها العلمية، بترائها التوثيقي، فهؤلاء الباحثون اعتمدوا على الأرشيف المحفوظ في مراكز الوثائق الموجودة في بلدانهم والمكتوب بلغتهم الوطنية والذي يصعب علينا نحن الباحثين الجزائريين الوصول إليه لأسباب لغوية أو قانونية.

ونحتاج اليوم إلى ترجمتها إلى اللغة العربية ليطلع عليها الباحثون والطلبة الجزائريون ليستفيدوا منها في دراساتهم وأبحاثهم.

- أيضا دكتور ما هي المنهجية العلمية التي يجب أن يتخذها الباحث الجديد أو الباحث في عصر العولمة؟

-منهجية البحث في مجال التاريخ لم تتغير كثيرا في عصر العولمة، وربما تطوّرت الوسائل المساعدة على البحث والكتابة، وتنوعت الموضوعات التي تشغل المؤرخين

المعاصرين والتي غفل عنها السابقون أو ظهرت حديثا مع التطور السريع للأحداث وتقارب الشعوب والثقافات.

لقد تثبت المؤرخون مبكرا إلى أهمية الكمبيوتر في البحث التاريخي، وكان ذلك في السبعينيات من القرن الماضي قبل أن ينتشر هذا "الصندوق العجيب" بالشكل الذي نراه اليوم في كل مجالات الحياة ويوميات الناس.

وأذكر هنا على سبيل المثال المؤرخ الفرنسي إيمانويل لوروي لادوري الذي كان رائدا في هذا المجال منذ صدور كتابه القيم: "إقليم المؤرخ" في عام 1973، واستعمل الإحصائيات وقام بتحليلها في بعض المجالات التاريخية وبخاصة في ما تعلق بتاريخ المناخ عبر العصور، فلولا الكمبيوتر ما استطاع لوروي لادوري أن ينجز هذه الأعمال الرائدة في تلك الفترة.

واليوم لا يستغني المؤرخ عن الاعلام الآلي بما يقدمه له من خدمات لا تحصى من الاحصائيات والمعلومات والتواصل وامكانيات التحليل والحساب الدقيق وإلى غير ذلك من الخدمات التي توفر عليه الجهد والمال والتنقل ليتفرغ للبحث والكتابة.

ومن الاهتمامات الجديدة للمؤرخين نجد التركيز على الموضوعات الدقيقة جدا والمحصورة في فترة قصيرة للتعلم في دراستها بشكل كامل، وفي هذا السياق أشير هنا إلى الاختصاص الجديد: التاريخ المجهرى الذي أبدع فيه المؤرخ الإيطالي كارلو جنزبورغ.

وإذا طبقنا هذه المقاربة الجديدة على تاريخ الثورة التحريرية فإننا سنتعمق في فهم منطلقاتها وأبعادها ومساراتها في كل منطقة من المناطق الجزائرية، وندرك إسهامات كل الفئات الاجتماعية والمهنية في دعم الثورة وتحقيق أهدافها المنشودة.

مظاهرات 17 أكتوبر 1961 في باريس¹

ذكرى 17 أكتوبر 1961م، أهم وأسوء الأحداث في تاريخ الثورة الجزائرية، حدثنا دكتور عن خلفية هذه المجزرة؟

كان المشهد الأول من هذا الحدث التاريخي مظاهرة احتجاجية قام بها الجزائريون المقيمون في فرنسا يوم الثلاثاء 17 أكتوبر 1961 بأمر من فيدرالية جبهة التحرير الوطني. وقد شارك فيها الرجال والنساء والأطفال للتأكيد على طابعها السلمي.

وأقبل الجزائريون من أحياء باريس وضواحيها خاصة أوبرفلييه ونوتير وشوازي لوروا... للسير في مظاهرة سلمية حاشدة في شوارع باريس الكبرى (الأوبرا ولاكونكورد وبون نوفيل وإتوال... الخ). وكان عدد المتظاهرين بلغ حسب روايات مختلفة بين 20 و50 ألف متظاهر. واستغرقت وقائعها بين الساعة السابعة والنصف مساءً والحادية عشر والنصف ليلاً.

كان المتظاهرون يعبرون أمام العالم بطريقة سلمية واضحة عن احتجاجهم على القرار العنصري الذي صدر يوم 6 أكتوبر 1961 عن محافظة باريس، والذي ينص على منع الجزائريين -دون غيرهم- من الخروج والتجوال بين الثامنة والنصف ليلاً والخامسة والنصف صباحاً.

¹ البصائر، العدد 1034، 18 أكتوبر 2020، ص 10. حوارته فاطمة طاهي.

كما يأمر هذا القرار الذي أمضاه المحافظ موريس بابون وأكد عليه وزير الداخلية روجيه فريي، بغلق المحلات التجارية التي يملكها الجزائريون على الساعة السابعة مساء.

وكان الهدف من وراء ذلك هو القضاء على ديناميكية جبهة التحرير الوطني في فرنسا ومحاصرة نشاطاتها الثورية في صفوف الجزائريين الذين تجاوبوا معها دائما بفعالية، وساهموا بشكل كبير في تمويل الثورة والدعاية لها.

- كذلك دكتور ما ارتكبه فرنسا في حق الجزائريين من قتل واعتقال وتعذيب، ونهر السين يشهد بهذه المجزرة التي كان لها صدى عالمي رغم التعتيم الإعلامي بسبب منع فرنسا حضور الصحافة أو الكتابة عن المجزرة، حدثنا دكتور عن هذه النقطة؟

- واجهت السلطة الفرنسية هذه المظاهرات السلمية بعنف وقسوة، ولم تفرق القوات الأمنية الفرنسية المختلفة بين الأطفال والنساء والشيوخ. وقد وثقت هذه الممارسات القمعية صور كثيرة سواء التي إلتقطها المصور المعروف إيلي كاغان أو غيره.

وكذلك المقالات الصحفية والكتب والأفلام الوثائقية والشهادات الحية التي ظهرت سنوات من بعد وما زالت تظهر إلى يومنا هذا، تكشف كلها صفحات مظلمة من تاريخ فرنسا الاستعماري.

أما ما يخص عدد الضحايا، فإن علي هارون -الذي كان حينئذ من قادة فيدرالية جبهة التحرير الوطني بفرنسا- قد ذكر في كتابه " الولاية 7" الأرقام التالية: 7500 معتقلا، و 2300 جريحا و 200 شهيدا قتل بطرق مختلفة ومنهم من تم رميهم إلى نهر السين بعد تعذيبهم وقتلهم.

وذكر الباحث الفرنسي جون-لوك إينودي في كتابه "أكتوبر 1961: مجزرة في باريس": "159 شهيدا و68 مفقودا. وحاول بعض المؤرخين الفرنسيين التقليل من فظاعة هذه المجزرة وتحجيم عدد الضحايا مثل ما فعل المؤرخ جون-بول بروني في كتابه: "الشرطة ضد جبهة التحرير الوطني".

لكنها أصوات قليلة لم تستطع إقناع الفرنسيين بخطاياها التبريري القائم على الذرائع الأمنية والسياقات التاريخية المغلوطة والمقاربات الأيديولوجية التي تجاوزها الزمن.

حدثنا عن نتائج هذه المظاهرات؟ وكيف أجبرت فرنسا على الرضوخ والعودة إلى طاولة المفاوضات مع الطرف الجزائري؟

-وجدت السلطة الفرنسية نفسها في موقف محرج، خاصة وأن "معركة باريس" كما سماها جون بول سارتر وقعت تحت الأضواء رغم أن أحداثها جرت في الليل المظلم. ولم يسلم من الضرب والقمع العديد من الأجانب ذات الملامح المتوسطية من الفرنسيين والأسبان والبرتغاليين والأمريكيين.

وقد شاهد كثير من الصحافيين الفرنسيين والأجانب هذه المجزرة التي وقعت في قلب مدينة باريس وتحدثوا عنها في جرائدهم ونقلوا أخبارها ووصفوا أجواءها فانتشرت أصداؤها في كل أنحاء العالم فأدرك الناس وحشية الاستعمار الفرنسي وعرفوا مدى معاناة الشعب الجزائري وصواب نضاله وشرعية كفاحه من أجل التحرر والاستقلال.

وإذا كانت فرنسا الاستعمارية تتعامل مع الجزائريين المسلمين بهذه الشدة والقسوة في عاصمتها باريس وفي رابعة النهار، فلا شك أن معاملتها معهم في الجزائر -وخاصة مع

المجاهدين- ستكون أسوأ أضعافا مضاعفة ما دام رجالها يمارسون قمعهم بعيدا عن المراقبة والمحاسبة.

لقد سقط القناع عن فرنسا الإستعمارية، واكتشف الناس في العالم وجهها المظلم الذي بذلت كل ما تملك من القوة والنفوذ لتبييضه. لقد حاولت السلطة الفرنسية من وراء ذلك القرار العنصري أن تقضي على نشاط الثورة الجزائرية في فرنسا، وتضعف الحكومة الجزائرية المؤقتة التي دخلت معها في مفاوضات غير أن مكر التاريخ كان للمستعمرين الظالمين بالمرصاد.

كانت معركة باريس انتصارا إعلاميا لا نظير له حققته الحكومة الجزائرية المؤقتة، واضطرت الحكومة الفرنسية للعودة إلى مدينة إفيان السويسرية ضعيفة المواصلات المفاوضات السابقة التي انتهت بالإعتراف الرسمي بالسيادة الجزائرية وحق الجزائريين في استعادة استقلالهم الوطني.

❖ لقاء حول كتابي " المؤرخون العرب والقضية الفلسطينية" ¹

عاد مؤخرًا الباحث في التاريخ، البروفيسور مولود عويمر، بإصدار جديد بعنوان "المؤرخون العرب والقضية الفلسطينية". وقال في حوار لـ "الخبر"، أن المثقف له مسؤولية تاريخية تجاه القضية الفلسطينية، لذلك اعتبر انخراطه في الكتابة في الهم الفلسطيني واجبًا تجاه ما تتعرض له غزة من إبادة جماعية، مؤكدًا أن «المعركة الفكرية الكبرى بيننا وبين من يهدد مستقبلنا تكمن أيضًا في ملعب التاريخ».

صدر لكم مؤخرًا كتاب المؤرخون العرب و القضية الفلسطينية، كيف جاءت فكرة الكتابة في هذا الموضوع، وفي هذه الفترة بالذات؟

لا يمكن لإنسان عاقل أن يشاهد الإبادة الجماعية التي يتعرض لها الفلسطينيون في غزة منذ شهر أكتوبر 2023 ولا يتأثر بما يراه من مجازر ولا يقدم على تغيير المنكر بما يستطيع، لذلك انخرطت في ديناميكية نصرته القضية الفلسطينية بوجداني ولساني وقلبي، فشاركت في حصص إذاعية وتلفزيونية وكتبت مقالات عديدة لتبيان جذور المسألة الفلسطينية، وقدمت وجهة نظري حول تطور الأحداث التي تنقلها لنا وسائل الإعلام من غزة والتفاعل الدولي تجاهها، وعرضت عليهم سجلّ الإجرام الصهيوني في فلسطين منذ قرن وحقّرت الناس على نصرته إخوانهم المظلومين وهم على بينة.

¹ الخبر، 7 أوت 2024، ص 23. حاورته لامية أورتيلان.

المتقف له مسؤولية تاريخية على عاتقه يجب أن يؤديها على أحسن وجه. و باعتباري مؤرخاً رأيت من واجبي استحضار ما كتبه المؤرخون الفلسطينيون والعرب حول المقاومة الفلسطينية والصراع العربي الإسرائيلي لفهم واقع ما يحصل اليوم في غزة الشهيدة، ورسم طرق التفاعل مع الأحداث المتعاقبة بشكل مثمر، والرد على كل المغالطات التي تنشرها العديد من صفحات الجرائد ومنصات وسائل التواصل الاجتماعي وقنوات التلفزيون المدعّمة بصورة مخفيّة ومكشوفة للسردية الإسرائيلية. فنحن نتعامل مع عدو يحاربنا بالعلم، ويشكك في تاريخنا ليثبت وجوده، ويمارس جبروته ويبرّر هيمنته علينا وعلى العالم. فلا يمكن أن نتنصر في هذه الحرب الحضارية إلا بالعلم الصحيح والإيمان الصادق.

تعتبر القضية الفلسطينية قضية كل العرب و المسلمين، حيث كتب عنها الكثيرين، كيف اخترت الشخصيات التي تناولها العمل وعلى أي أساس؟

جمعت في هذا الكتاب 21 مؤرخاً، 10 من فلسطين، و 11 من دول عربية (مصر، سوريا، العراق، لبنان، الأردن، تونس، الجزائر). تناولت في الكتاب فصلين، درست في الفصل الأول المؤرخين الفلسطينيين الذين كتبوا في هذا الموضوع باعتبارهم باحثين أكاديميين ملتزمين بالمنهج العلمي الصارم، وفي نفس الوقت مفكرين ومثقفين أصحاب القضية عبّروا عن مواقفهم المناهضة للحركة الصهيونية وللدعم المفرط والمتحيز الغربي. وقد توزع المؤرخون الفلسطينيون على 3 أجيال، فكان الأستاذ محمد عزة دروزة وعبد اللطيف الطيباوي يشكّلان الجيل الأول. وليد الخالدي وهشام شرابي وأنيس صايغ وأحمد صدقي الدجاني وخيرية قاسمية يشكلون الجيل الثاني، بينما سميح شبيب وماهر شريف وبشير نافع يمثلون الجيل الثالث. وقد تخللت كل

الأيدولوجيات (الوطنية، القومية، الماركسية والليبرالية) هذه الأجيال الثلاثة التي درست في جامعات عربية وغربية وتأثرت بالعلوم الاجتماعية الحديثة.

وفي الفصل الثاني درست كتابات المؤرخين العرب الذين اهتموا بالتاريخ الفلسطيني ودرسوا الصراع العربي الإسرائيلي، وكانت لهم مواقف مشرّفة في نضالهم القومي. وكلما كان المؤرخ قريبا من ساحة المقاومة اهتم أكثر بالموضوع مثل المؤرخين الأردنيين واللبنانيين والمصريين وقد أشرت هنا إلى أبرز هؤلاء المؤرخين كالدكتور علي محافظة (الأردن)، قسطنطين زريق وحسان حلاق (لبنان)، وأحمد طربين (سوريا) وصلاح العقاد وعادل غنيم (مصر). كما وجدنا دراسات مجهرية اهتمت بالحركة الصهيونية في قطر عربي كالجزائر وتونس وليبيا. والجدير بالذكر هنا أن المؤرخ الجزائري الدكتور ناصر الدين سعيدوني كان أول باحث أكاديمي جزائري كتب عن الحركة الصهيونية في الجزائر في مقال نشره في مجلة "الثقافة" في عام 1983. وكان المؤرخ التونسي الدكتور علي المحجوبي من الأساتذة العرب الأوائل الذين درّسوا للطلبة في الجامعة "جذور الاستعمار الصهيوني في فلسطين" في سلسلة من الدروس.

وإذا كتب أكثرهم عن فلسطين بحرية وبدون أية ضغوطات داخلية وخارجية، فإن المؤرخ الفلسطيني الدكتور أنيس صايغ تعرض عدة مرات لمحاولة الاغتيال من طرف الصهاينة وأصيب مرة بجروح خطيرة. كما أن المؤرخ التونسي الدكتور عبد الهادي التيمومي وجد عراقيل لطبع كتابه "الحركة الصهيونية في تونس". ولعل هذا ما أزهده على مواصلة البحث في هذا المجال ودفعه للاهتمام بالموضوعات التاريخية الأخرى، بينما لم يجد الباحث الجزائري الدكتور يوسف مناصرية ما يعيقه عن الاشتغال بالحركة

الصهيونية في الجزائر، بل فتحت له الجامعة أبوابها لينجز هذا العمل في رحابها في إطار أطروحة الدكتوراه.

كيف وجدتم تفاعل المؤرخين العرب مع القضية الفلسطينية عبر مراحل تطورها وأحداثها التي تزيد سوءا يوما بعد يوم؟

معظم المؤرخين الفلسطينيين درسوا في الجامعات الغربية كالولايات المتحدة الأمريكية، وبريطانيا وفرنسا، واستقر بعضهم هناك، إلا أنهم جميعا ما قرطوا في قضيتهم الوطنية وكتبوا عنها ودافعوا عنها في وسائل الإعلام المختلفة، وأذكر هنا على سبيل المثال الدكتور عبد اللطيف الطيباوي الذي كان أستاذا في جامعة لندن ونشر عدة أعمال عن فلسطين باللغة الانجليزية ودافع عنها في وسائل الإعلام البريطانية. وأذكر في نفس السياق الدكتور هشام شرابي الذي ساهم في العمل الأكاديمي والنضال الفلسطيني في الولايات المتحدة الأمريكية.

يعتبر المؤرخ المصري الدكتور عادل غنيم أكبر مؤرخ عربي تخصص في تاريخ فلسطين المعاصر. فكانت غالبية مؤلفاته وبحوثه حول القضية الفلسطينية بدراسة حركتها الوطنية وصلتها بمصر، فأشرف على إعداد "موسوعة مصر والقضية الفلسطينية" التي صدرت في 6 مجلدات. ويليه بعد ذلك المؤرخ السوري الدكتور أحمد طربين الذي خصص كتابا وبحوثا لفلسطين، واعتبر دائما قضيتها قضية مصيرية مشتركة بين العرب. ويشاركه في هذا الطرح المؤرخ اللبناني الكبير الدكتور قسطنطين زريق والمؤرخ المصري الدكتور صلاح العقاد اللذان اهتما بالقضية الفلسطينية في إطار الصراع العربي الإسرائيلي.

لم يكتب المؤرخون العرب بكتابة تاريخ فلسطين المعاصر بالتأليف والترجمة، بل وقف العديد منهم مساندين للقضية الفلسطينية، وفتّدوا السردية الصهيونية التي تروّج لها المؤسسات الاعلامية والأكاديمية الاسرائيلية والغربية التي تتلاعب بالتاريخ لتحقيق مصالحها. فالمعركة الفكرية الكبرى بيننا وبين من يهدد مستقبلنا تكمن أيضا في ملعب التاريخ. فهل نحن واعون بهذا التحدي أم مازلنا غافلين رغم كل ما حدث منذ 7 أكتوبر 2023؟

على ماذا اعتمدتم في بحثكم في هذا الموضوع، وهل وجدتم صعوبات في ذلك؟

-لقد اعتمدت في هذا الكتاب أولا وقبل كل شيء على الأعمال الأصيلة لهؤلاء المؤرخين، فقرأت كل ما كتبوه حول فلسطين من كتب وبحوث ومقالات ومقابلات، وتتبع مسارهم النضالي الوطني، واستعنت بمصادر ومراجع أخرى. ويختلف حجم المصادر من مؤرخ إلى آخر، فهناك من قضى حياته في البحث والكتابة عن فلسطين أمثال الدكتور وليد الخالدي، والدكتور أنيس صايغ والدكتورة خيرية قاسمية والدكتور سميح شبيب، وبين مؤرخ خصص جزءا من وقته لتأليف كتاب واحد أو نشر مجموعة قليلة من الدراسات والبحوث.

في الحقيقة لم أجد صعوبة كبيرة في إنجاز هذا الكتاب باستثناء عدم التفرغ التام للكتابة والبحث، فقد كتبت الأصول الأولى لهذه المباحث كمقالات متسلسلة في جريدة البصائر لمدة نصف عام، وأنا أمارس في نفس الوقت كل الالتزامات الأخرى بشكل طبيعي. فلو كان في مكاني باحث أوروبي أو أمريكي لطالب بعطلة تفرغ ومنحة

البحث من جامعيته أو من الهيئات العلمية الأخرى؛ فمثل هذه الأعمال العلمية تحتاج فعلا إلى التفرغ التام لها وتتطلب إمكانات أكثر لإنجازها في أفضل صورة.

كل باحث و كاتب في مسألة ما كثيرا يتفاجأ بمقائيق أو معطيات لم يكن يعرفها من قبل، فماذا عن البروفيسور عويمر، خاصة وأنتك ببحث في مسألة أسالت الكثير من الحبر؟

نعم هناك مفاجئات لم أكن أنتظرها لما شرعت في هذا العمل. فيلاحظ من يدرس تاريخ الحركة الصهيونية قدرتها الفائقة على استغلال كل الظروف للوصول إلى أهدافها التي سطرته لتنشئ دولتها بالقوة في فلسطين في عام 1948 بعد أن تخلت عن مشاريعها في مناطق أخرى. وقد نبهنا المؤرخ العراقي الدكتور وسام حسين عبد الرزاق إلى مشروع المستعمرة اليهودية في يوغندا في عام 1904، كما نبهنا المؤرخ الليبي الدكتور مصطفى عبد الله بعيو إلى المشروع الصهيوني لتوطين اليهود في ليبيا في 1909. ولم تكن هذه المشاريع وغيرها معروفة عند القراء والباحثين.

لا توجد في المناهج العربية مواد خاصة بتاريخ فلسطين، فلا يدرس في المؤسسات التعليمية والجامعية في الوطن العربي كمود مستقلة دسمة يتعرف من خلالها الشباب العربي على تاريخ الفلسطينيين ومقاومتهم الباسلة ضد الاحتلال الصهيوني. فكيف ننتظر منهم أن يتفاعلوا أكثر مع نضالهم الراهن وهم لا يعرفون عنه إلا القليل من المعلومات، بينما يحرص الإسرائيليون والغربون على تدريس تاريخ اليهود وخاصة ما تعرضوا له من قمع من طرف النازيين خلال الحرب العالمية الثانية. فوجدنا أجيالا كاملة

من الصهاينة والأمريكيين والأوروبيين متعصبين تعصبا أعمى للكيان الصهيوني نتيجة هذه التربية الايديولوجية المتطرفة. أما العلاقة القائمة بين العرب وفلسطين فلم يحفظها إلا خيط الرابطة الدينية في غالب الأحيان.

كما استغربت خلال هذا البحث عدم وجود متخصصين عرب في تاريخ فلسطين أو باحثين متفرغين لدراسته في بعض الدول العربية، فلا تجد فيها باحثا ألف كتابا أكاديميا واحدا عن الموضوع رغم قوة العلاقة التي كانت تربط بين شعوب تلك الدول والفلسطينيين. فهناك فراغ كبير في مجال الدراسات الفلسطينية في المدارس والجامعات العربية! وقد حان وقت لسده.

﴿ حوار مع جريدة الجمهورية حول قضايا تاريخية ﴾¹

الجمهورية: صدر لكم مؤخرا كتاب بعنوان "المؤرخون العرب والقضية الفلسطينية"، وهو حسب ما أعرف موضوع يتم تناوله لأول مرة، ويأتي في ظرف مهم من الأحداث التي تعرفها الأراضي المحتلة. هل يمكنك أن تعطينا فكرة عن الكتاب وما دافع لتأليفه؟

هذا الكتاب صدر في هذا الشهر عن دار ومضة في 250 صفحة من الحجم المتوسط. تناول القضية الفلسطينية من وجهات نظر المؤرخين الفلسطينيين والعرب. وقد اخترت منهم 21 نموذجا، 10 مؤرخا من فلسطين، و11 مؤرخا من الدول العربية. سبق وأن نشرت الأصول الأولى لهذا الكتاب في جريدة "البصائر" خلال ما يقارب 5 أشهر دعما للقضية الفلسطينية التي عادت إلى الواجهة بعد سنوات من النسيان والتيه والأمل واليأس.

لقد نبّهت في هذا الكتاب إلى ضرورة قراءة تاريخ الشعب الفلسطيني الصامد كما كتبه المؤرخون الفلسطينيون والعرب لنفهم طبيعة الصراع العربي الإسرائيلي، ونرسم بدقة الطرق المناسبة للتعامل معه وللانتصار في هذه المعركة الوجودية مع خصم ظالم وعنيد يجد كامل الدعم اللازم من القوى الغربية.

¹ الجمهورية (وهران)، 29 جوان 2024، ص 12 و13، حاوره د. بن شرقي بن مزيا

أما الدعم العربي للقضية الأم فهو قليل لا يرقى إلى المناصرة المنتظرة من إخواننا الفلسطينيين، ومحدود خاصة في السنوات الأخيرة الحرجة لأسباب كثيرة تعرض لها بالشرح والتحليل والنقد بعض من تحدثت عنهم في هذا الكتاب. ولعل من أهم مشاهد هذا الدعم العربي هو المشاركة في المحافظة على الذاكرة الجماعية الفلسطينية من النسيان ونقل تاريخها إلى الأجيال المتعاقبة بلا ملل.

منذ عملية طوفان الأقصى التي تمت في 7 أكتوبر 2023 كثر النقاش حول القضية الفلسطينية في وسائل الإعلام المختلفة وفي مواقع التواصل الاجتماعي، وقد لاحظت أن الكثير منهم لا يعرفون هذه القضية ولم يقرأوا عن جذورها، وبعضهم لم يتبعوا مساراتها المتعددة، ولم يدركوا تطوراتها المستمرة ويتأملوا في تداعياتها المعقدة رغم أنها من أقدم قضايا التحرر في العالم. بل هناك من يستمد معلوماته من مصادر صهيونية مضللة تعتمد على أساطير وهمية وليس على حقائق تاريخية واضحة.

أما المؤرخون الاسرائيليون الجدد الذين فتدوا السردية الصهيونية فكتاباتهم أصبحت محصورة في داخل المجتمع المعرفي الاسرائيلي وفي الخارج. ورأينا على سبيل المثال سحب الناشر الفرنسي (دار فيار) من البيع نسخ من كتاب "التطهير العرقي في فلسطين" للمؤرخ الاسرائيلي إيلان بابي تحت ضغط اللوبي الصهيوني في فرنسا.

ولابد أن أشير هنا إلى نقطة مهمة. فخلال إعداد هذا العمل اكتشفت حقيقة مرة، وهي أن تاريخ فلسطين غائب في المناهج الدراسية في العالم العربي، وقلمنا تجد في بلد عربي مؤرخا مختصا أو باحثا مهتما بشكل واسع بهذا التاريخ! إلا الفئة القليلة من

المؤرخين الذين درست أعمالهم في هذا الكتاب، وعزّفت القراء آرائهم وأفكارهم ومواقفهم.

ذكرت في هذا الكتاب المؤرخ المعروف بكتاباتة التاريخية والفكرية ومواقفه الصريحة مثل هشام شرابي، وليد الخالدي، أنيس صايغ، أحمد صدقي الدجاني، وسميح شبيب من المؤرخين الفلسطينيين، قسطنطين زريق، علي المحافظة، عادل غنيم، والهادي التيومي... من المؤرخين العرب. وذكرت أيضا المؤرخين الراهبين في محراب البحث العلمي، وهم يمثلون النسبة الكبيرة من هذه النماذج المدروسة هنا.

وكل ما يجمع هؤلاء العلماء الواحد والعشرين هي الشواغل الفلسطينية والكتابة حول تاريخ فلسطين المعاصر والراهن الذي يجب أن يعم في المناهج العربية ويدرس في المدارس والجامعات. فلا يمكن للعرب أن ينتصروا لقضية عادلة يجهلون منطلقاتها وأبعادها، ولا يقرؤون تاريخها من مصادرها الأصيلة ومن منابعها النقية.

الجمهورية: أظن بأن الكتاب يمكننا أن نضعه ضمن سياق آخر إذا سمحت
وأعني سياق ما يسمى اليوم بالحركة ما بعد الاستعمارية خاصة وأنا ادوارد سعيد هو واحد من بين أقطاب هذا التوجه ولأن الاستعمار الصهيوني اليوم يستعمل وسائل مختلفة ومتنوعة في التنكيل بشعبنا في فلسطين ويستغل الكثير من الثغرات في القانون الدولي.

لا شك في ذلك، فإن تصفية الاستعمار لم تنته مع حصول جل المستعمرات الافريقية والآسيوية على استقلالها بعد نضال سياسي مرير أو مقاومة ثقافية صامدة وكفاح مسلح طويل كما هو حال الجزائر. لقد وضع المستعمر استراتيجية دائماً تسمح

له بالحفاظ على امتيازاته التي حققها من قبل، وتمكّنه من الاستمرار في استغلال الثروات الطبيعية والبشرية بأجنس الأثمان وأقل الأتعاب، وترسيخ ثقافته المهيمنة بكل الطرق لتحديد أفكار المقاومة في البلدان المستقلة وإخاد روح التغيير في مجتمعاتها، وتعطيل حركة التنوير في شعوبها.

فهذه الاستراتيجية لم تعد اليوم مستترة بعد أن فضحها مفكرون غربيون قبل مفكرين عرب، وأذكر هنا أعمال: فرانس فانون، إدوارد سعيد، أنور عبد المالك، نعمو تشومسكي، مالك بن نبي، جمال حمدان، وعبد الوهاب المسيري وغيرهم.

الصهانية لا يستغلون فقط الثغرات القانونية الموجودة في المنظمات الدولية والتشريعات المسيّرة للعالم والتي وضعها الغرب ليتحكم في الشعوب الأخرى، وإنما يستغل أكثر جهل الناس بالأيديولوجية الصهيونية القائمة على العنصرية والعنف، ويستغل جهل الناس بتاريخ فلسطين وسط انتشار السردية الصهيونية للقضية.

ولكن ربة ضرة نافعة، فقد عاد الوعي إلى الشعوب والنخب الغربية فاهتمت بتثقيف نفسها من المصادر العلمية الصحيحة، وقد تابعنا المظاهرات اليومية في العواصم العالمية الكبرى دعماً للشعب الفلسطيني وتنديداً بالإبادة الجماعية التي ترتكها الحكومة الإسرائيلية.

كما شاهدنا الحراك الفكري والنشاط الميداني للجامعات الأمريكية والأوروبية العريقة التي وقفت علناً مع الشعب الفلسطيني، وجتّدت كل ما تملك من الوسائل لتصحّح المفاهيم وتنتشر الحقيقة. لقد خسرت إسرائيل معركة الرأي العام العالمي رغم ما جتّده من وسائل التأثير وأساليب التضليل، وهكذا، فقدت مبررات وجودها

بعد أن ارتكبت الإبادة الجماعية في غزة في رابعة النهار ونقلتها مشاهدتها المرعبة كل وسائل الإعلام الدولية وشاهدها الناس في كل مكان.

هذه هي طبيعة المجتمعات الغربية المفتوحة، تجد دائما فيها أنصار الحرية وأصحاب المبادئ والقيم. وقد وقف العديد منهم إلى جانب القضية الفلسطينية منذ يومها الأول ولا يزالون على ذلك العهد، كما وقف آخرون منهم إلاى جانب الشعب الجزائري خلال ثورته التحريرية.

ولعل أشهرهم أستاذ الرياضيات بجامعة الجزائر موريس أودان الذي سميت به واحدة من أجمل الساحات في الجزائر العاصمة، واعترف مؤخرا الرئيس الفرنسي إمانويل ماكرون بمسؤولية الدولة الفرنسية في اعتقاله من طرف الجيش الفرنسي وقتله تحت التعذيب.

الجمهورية: أريد أن أعود معك إلى الكتابة التاريخية عندنا في الجزائر خاصة وأتينا سنحتفي بعد أيام بالذكرى 62 للاستقلال وهي ذكري عزيزة علينا لما حققناه من استقلال متميز عن أكبر قوة استعمارية في العالم آنذاك. أعود معك وأنت واحد من بين المؤرخين الذين يشكلون جيلا ثانيا أو ثالثا في الكتابة التاريخية عندنا ومن خلال تتبعك كهتم بهذا المجال لاحظت أن لدى هذا الجيل تنوع في تناول القضايا التاريخية أي أن موضوع التاريخ أصبح شاملا لمجموع قضايا لم تكن من اهتمامات الجيل الأول مع بعض الاستثناءات بطبيعة الحال والدليل أنك تأخذ في قضايا المرأة، والصحافة والتاريخ المحلي وتاريخ الطرق الصوفية وغيرها من المواضيع بحنكة المؤرخ. فهل يعود

ذلك إلى ما يمكن أن نعتبره تحول معرفي قد تكون له لا حقا نتائج مهمة على الكتابة التاريخية؟

كان الجيل الأول من المؤرخين الجزائريين المهتمين بتاريخ الجزائر أمثال الشيخ مبارك الميلي، والأستاذ أحمد توفيق المدني، والشيخ عبد الرحمن الجيلالي.... مهمومين بمسألة الهوية الوطنية التي كانت في خطر أمام الأطروحة التاريخية الاستعمارية والمشروع الحضاري التغريبي.

وبعد الاستقلال واصل المؤرخون الأكاديميون البحث في نفس الموضوعات من مداخل سياسية وثقافية فدرسوا الحركة السياسية الوطنية وسير الأبطال لأسباب موضوعية متصلة ببناء الدولة الوطنية الفتية التي تحتاج إلى "وجه تاريخي" وتخليص "شرعية تاريخية" قبل كل شيء، من خلال انتقاء رموز تاريخية واصطفاء محطات تاريخية بيّنة تبنتها الدولة لتعبّر من خلالها عن صبغتها الأيديولوجية وتفصح عن تطلعاتها المستقبلية وطموحاتها التنموية.

لقد اهتم البحث التاريخي بالمقاومة الشعبية والحركة الوطنية والثورة التحريرية، فأنجزت أعمال كثيرة من الرسائل الجامعية والكتب والبحوث حول أعلام المقاومة في القرن التاسع عشر، ورجال السياسة والإصلاح في المنتصف الأول من القرن العشرين، ثم أحداث وأبطال الثورة التحريرية. ومازالت هذه الموضوعات تشغل اهتمامات الباحثين إلى اليوم.

وكانت "مجلة تاريخ وحضارة المغرب" التي كان يديرها الدكتور محفوظ قداش، أول مجلة تاريخية أكاديمية بعد الاستقلال، وجمعت في هيئة تحريرها خيرة المؤرخين

الجزائريين ونشرت عددا كبيرا من الدراسات والبحوث والوثائق المتصلة بتاريخ الجزائر المعاصر. وللأسف توقفت هذه المجلة وتفرق محرروها وكتّابها أشتاتا. وجاء فريق آخر وأسس مجلة "التاريخ" التي كان يصدرها المركز الوطني للدراسات التاريخية وواصلت البحث التاريخي في عصوره المختلفة بعزيمة وجدية. والمتصفح لهاتين المجلتين الرائدتين يتثبت مما أشرت إليه سابقا، أي طغيان التاريخ السياسي على حساب الفروع التاريخية الأخرى.

ولا شك أن هناك استثناءات في الجيلين السابقين، وأذكر هنا على سبيل المثال وليس الحصر الدكتور أبو القاسم سعد الله الذي بدأ بدراسة الحركة الوطنية في عدة كتب، وختم مشواره العلمي بإصدار موسوعته الكبيرة "تاريخ الجزائر الثقافي" في 13 مجلدا.

وأذكر أيضا أعمال الدكتور ناصر الدين سعيدوني حول الملكية العقارية، ودراسة الدكتور يحيى بوعزيز حول المرأة في تاريخ الجزائر، وأطروحة حول الحرف والحرفيين في مدينة الجزائر للدكتورة عائشة غطاس، وأعمال حول تاريخ الصحافة للدكتورة فاطمة الزهراء قشي، ... الخ.

أما الجيل الثالث من المؤرخين الجزائريين خاصة الذين تكونوا في الجامعات الأوروبية والأمريكية توّجّهم نحو دراسة تلك القضايا من خلال مقاربات مختلفة، أو دراسة قضايا جديدة مواكبين بذلك تطوّر البحث التاريخي الحاصل في العالم.

فأنا شخصيا -المنتمي إلى هذا الجيل- اشتغلت منذ سنوات على تاريخ الفكر المعاصر، فتناولته في أكثر من خمسة وعشرين كتابا وفي مئات المقالات والمحاضرات

والحصص الإذاعية والتلفزيونية. وكان آخر برنامج أسبوعي أعدته وقدمته في الإذاعة الثقافية هذا العام كان حول الدور الحضاري للمرأة في العصر الحديث. وقد اكتشفت من خلال تفاعل المتابعين بأن هنالك العديد من الرسائل الجامعية التي تُعد الآن في الجزائر حول تاريخ المرأة. وهذا توجه سليم في حقل التاريخ يستحق كل التشجيع والدعم.

نحن ملزمون بتجديد المقاربات والمناهج والتفتح على العلوم الأخرى بشكل عام والعلوم الاجتماعية بشكل أخص حتى نرتقي بالمدرسة التاريخية الجزائرية إلى مستوى المتطلبات العلمية الراهنة والتحديات المعرفية القادمة. فلسنا وحدنا في هذا المجتمع العالمي المفتوح الذي يتغير بسرعة مذهلة، فإما أن نواكبه فنتقدم، وإما أن نتجاهله فنتأخر، وحينئذ ويل للمتخلفين!

إننا نملك في الجزائر أكثر من 50 جامعة ومئات من مخبر البحث وآلاف الطلبة الذين ينجزون في كل عام مذكرات التخرج وأطروحات الدكتوراه، فلو استثمرنا بصورة عقلانية وسليمة هذا الرصيد الزخم من الإمكانيات المادية والمعرفية والقدرات البشرية بلا شك أقمنا ثورة إبيستمولوجية ولأحدثنا طفرة معرفية كبيرة.

وهنا أطرح السؤال التالي: أين الخلل؟ هناك أسباب كثيرة، ولعل من أهمها قلة الاهتمام بتكوين الباحث ونقص الرؤية في هذا المجال عند أصحاب القرار وضعف الهمة عند الباحثين الذين يتحججون بمعوقات إدارية ومالية.

وعلى سبيل المثال نقص الخدمات أو قل الخدمات الضعيفة في بعض المكتبات ومراكز التوثيق والأرشيف أزهدتني أحيانا على عدم الرجوع إليها رغم حاجتي إلى مقتنياتها من الوثائق والكتب.

الجمهورية: تبعا لما سبق هل هناك كتابات تاريخية حول مواضيع تتعلق بالاقتصاد والزراعة والمناخ وهي كما تعمل لها جانب من التاريخ حسب علمي لا نجد لحد الآن من مؤلفات المؤرخين من كتب عن التاريخ الزراعي للجزائر أو تاريخ المناخ وهي من المسائل المهمة للفاعل السياسي في وضع خطط برامجه؟

أنت أشرت إلى موضوعات مهمة لم تأخذ بعد حقها من اهتمام المؤرخين في الجزائر بشكل خاص وفي العالم العربي بشكل عام. بل تاريخ المناخ على سبيل المثال لم ينل أيضا حقه الكامل في الجامعات الغربية التي تعنى كثيرا بدراسة البيئة من خلال الجوانب المعرفية المختلفة سواء لأغراض علمية بحتة أو لأغراض اجتماعية واقتصادية.

لقد بقي الأستاذ إيمانويل لوروي لادوري لفترة زمنية طويلة المؤرخ المنفرد بهذا الحقل المعرفي وأثرى المكتبة التاريخية بمجموعة من الكتب النفيسة. وأذكر هنا كتابه المؤسس "تاريخ المناخ منذ العام 1000" الصادر في عام 1967. وأتبعه بكتاب آخر بعنوان: "التاريخ البشري والمقارن للمناخ"... وكذلك نشر العديد من المقالات والبحوث في هذا الميدان.

أما عندنا في الجزائر فإن دراسة تاريخ المناخ أو التاريخ الجغرافي بشكل عام هي نادرة في بحوث الفترة الحديثة والمعاصرة، وأذكر منها بحثا للدكتور محمد غالم من جامعة وهران حول "ظاهرة الزلزال في الأسطوغرافيا الجزائرية التقليدية".

ودراسة المناخ عبر الزمن لا تفيد فقط المؤرخين وإنما تفيد أيضا علماء الطقس وكذلك أهل القرار في تخطيط التنمية وتنظيم حياة الناس. فقيمة التاريخ ككل العلوم تكمن في قيمته الوظيفية أي المنفعة التي يقدمها للإنسان ليسهل له حياته النفسية والبيولوجية والاجتماعية، والفائدة التي يضيفها ليتقدم العلم في شتى المجالات.

لقد تنبه بعض المؤرخين "الكولون" إلى أهمية دراسة التاريخ الزراعي في الجزائر، فأنجزوا بحثا رصينة في هذا المجال، وأستحضر هنا الآن أطروحة المؤرخ أندري نوشي حول الحياة الريفية في منطقة قسنطينة بين 1830 و1919، كما أذكر أطروحة المؤرخ كسافيه ياكونو حول الحياة الريفية في الغرب الجزائري...

وتضمنت هاتين الرسالتين معلومات علمية غزيرة عن المنطقتين الشرقية والغربية بقطر الجزائري الفسيح، ما زالت تعتبر مصادر أساسية للكثير من الدراسات العلمية حول تاريخ الريف الجزائري.

ظهرت بوادر في هذا المجال عند المؤرخين الجزائريين المتخصصين في التاريخ القديم والتاريخ الوسيط. أما في التاريخ الحديث والمعاصر فهي قليلة جدا. أذكر هنا على سبيل المثال أطروحة الدكتوراه التي أعدها المؤرخ ناصر الدين سعيدوني في جامعة أكس أون بروفانس حول الحياة الريفية في إقليم الجزائر. وأصدرها فيما بعد في جزأين. وصار طلبته المتميزون على خطاه وأنجزوا أعمالا عديدة في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي.

التاريخ الاقتصادي يدرس موضوعا دقيقا محمدا بصورة عمودية. فالأطروحة التي تهتم بالحياة الاقتصادية (هكذا) في دولة عاشت عشرات السنين أو في دول أخرى

استمرت قرونا لا يمكن لها أن تحصيل الغرض العلمي المنشود وتحقق النتائج الدقيقة المنتظرة.

فالمهج المكروسكوبي الذي طوّره المدرسة التاريخية الإيطالية مفيد جدا في التاريخ الاقتصادي بشكل خاص. وأتمنى أن يعود إليها "مؤرخونا الاقتصاديون" ويستفيدوا من مقارباتها قبل موضوعاتها التي تشمل مجالات متنوّعة.

لم يعد يهيم كثيرا الأسطوغرافية الراهنة البحث عن موضوعات جديدة وإنما تهتم بدراسة الموضوعات المدروسة سابقا بمقاربات أخرى وبطرح إشكاليات غير المفكر فيها واستغلال مصادر غير مستغلة من قبل. لذلك نسمع اليوم بـ "عودة الحدث"، و"عودة البيوغرافية"، وهي موضوعات ثارت عليها مدرسة الحوليات وهمشتها تماما لعقد من الزمن.

أصبحت ورشة المؤرخ النبیه تتوسع أفقيا وتمو عموديا لتساهم باستمرار في تعزيز دور العلوم الاجتماعية في تطوّر العلم ودفع حركة التغيير الاجتماعي. فالمؤرخ لا يجي الماضي ليستبدل به الحاضر، وإنما ليربط المستقبل بالحاضر. فالدورة الزمانية حركة متداخلة فإن استوت توقفت.

هناك حقول معرفية تاريخية تنتظر الباحثين الجادين ليشغلوا عليها خاصة وأن الوسائل التقنية الراهنة قادرة على تسهيل أعمالهم بما توقّره لهم من المادة العلمية وتمنحهم أدوات البحث والحساب والتحليل والمقارنة.

المؤرخون الجزائريون الرواد اشتغلوا في ظروف قاسية جدا وإمكانات محدودة. ومع ذلك، تركوا تراثا نقرأه اليوم بنهم، ونعتمد عليه في أبحاثنا رغم الثغرات الموجودة فيه والتي تحتاج إلى المراجعة والنقد.

عندما زرت مدينة الأغواط في صحرائنا الشاسعة وعاينت البيئة التي عاش فيها الشيخ مبارك المليي وكتب فيها كتابه "تاريخ الجزائر في القديم والحديث" في جزأين بين 1928 و1932، أدركت حقا حجم تضحيته وقوة صبره، وقدرت عظمة جهده وضخامة عمله، واستهنت الصعوبات التي تعيق من حين إلى آخر أعمالنا العلمية واستصغرت المعوقات التي تعطل تقدم مشاريعنا الفكرية.

الجمهورية: مثلما سبق وأن ذكرت لك من قبل سنحتني بالذكرى 62 للإستقلال ما هي الرسالة التي يمكنك أن توجهها بمناسبة هذه الذكرى؟

نحن استرجعنا استقلالنا بعد ثورة 1954 الكبرى، التي تمثل نقطة تحوّل في التاريخ الأوروبي الاستعماري الحديث الذي انطلق منذ القرن الخامس عشر وحقق انتصار الرجل الأبيض ومشروعه التوسعي في العالم، ولم ينل ضربة قاصمة خارج دائرة الصراع بين الأباطوريات المتعاقبة خلال كل هذه القرون إلا في الفيتنام وفي الجزائر.

انتصر الشعب الفيتنامي على الأباطوريتين: فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية، وانتصر الشعب الجزائري على الأباطورية الفرنسية ومن ساندها من دول الحلف الأطلسي.

والغريب في الأمر، أننا نجد مقارنات بين الثورتين في بحوث نشرت في أوروبا وأمريكا بينما لا نجد لها أثرا عند المؤرخين الجزائريين. فالمؤرخ الفرنسي بن نيامين سطورا أقام عاما كاملا في الفيتنام ليتفرغ لتأليف كتاب عن الثورتين الجزائرية والفيتنامية في مرآة السينما الفرنسية والأمريكية.

هذا "التفرد الثوري" إن صح التعبير جاء حصيلة تضافر جهود متعددة خاصة بعد الحرب العالمية الثانية وتدافع أشكال المقاومة الأربع في الساحة الجزائرية: تضافر السياسي والثقافي والعسكري والدبلوماسي، وتعبئة الشعب الجزائري من جهة وشعوب العالم من جهة أخرى لإنجاح هذا المشروع التحرري الحامل للقيم الانسانية ولصور من تضحية مثالية في سبيل نيل الحرية والعيش في كنف الكرامة.

وهنا أتوه بعمل الدكتور محمد أرزقي فراد الذي جمع شهادات أطفال الثورة التحريرية التي تبرز لنا معاناة الصبيان من أهوال الحرب وتعرضهم لقهر الجيش الاستعماري الذي لم يكن يفرّق في بطشه بين الكبار والصغار.

ولا ريب أن فتح ملف تاريخ السجون والمعتقلات في الفترة الاستعمارية سيكشف صمود الجزائريين وصبرهم الذي ليس له مثيل.

لقد نجحت الثورة التحريرية في تحقيق أهدافها لأنها لم تكن ثورة عسكرية محضة مثل بعض الثورات في أمريكا اللاتينية والجنوبية، ولم تكن فقط ثورة ايدولوجية مثل الثورة الصينية والثورة الروسية، ولم تكن ثورة سلمية مثل الثورة الهندية... وإنما كانت ثورة حيّة جمعت كل هذه السمات في فترات مختلفة من مسارها، وتبدّت في خطاها قيما إنسانية ينشدها المستضعفون في كل مكان.

وأصبحت هذه الثورة الخالدة محل إلهام المقاومين والمناضلين في العالم، وكان انتصارها على الامبريالية الفرنسية والغربية مصدر أمل للشعوب المقهورة التي تطمح أيضا في التحرر من قيود الاستعمار.

وبقدر هذه القيمة الكبرى لثورتنا ومكانتها المرموقة تعظم مسؤولية المؤرخ الذي يقدم على دراستها ويقبل على الكتابة عن أيامها ورجالها وقيمتها.

ولا نقصد هنا التخويف من التأريخ لها وإنما نحث على التحلي بالنباهة في التحليل والتأويل والتعليل والتذليل لنقدمها للقراء في كل مكان بوصفها ثورة الإنسان المعاصر وثورة القيم قبل كل شيء.

المحوّر الثاني:
من أجل تنمية المجتمع

1 العلم والعلماء في خدمة تنمية المجتمع

-كيف يمكن تشجيع الباحثين والأساتذة الجامعيين بما يسهم في تطوير العلم وازدهاره؟

-إن للباحث والمثقف والمفكر ثلاثة واجبات: التدريس أي نشر علمه الذي هو أمانة عنده وعليه أن يبلغه إلى طلبته ومحيطه القريب.

الواجب الثاني هو البحث العلمي حيث يجب أن يكون كل أستاذ باحثا علميا، يعني يساهم في إنتاج المعرفة وتطوير البحث العلمي وازدهاره عن طريق ما يؤلفه من كتب أو ينشره من مقالات في المجلات العلمية المحكمة.

أما الواجب الثالث فهو خدمة المجتمع ذلك أن لأمة الباحث عن حق عليه يؤدي لها عن طريق مساهمة الباحث في الجمعيات التي تسعى لخدمة المجتمع كجمعية الأطباء أو

¹ إذاعة القرآن الكريم، 10 نوفمبر 2011، حاوره محمد الأمين.

جمعية رعاية الأيتام أو جمعية حماية البيئة إلى غير ذلك من الجمعيات ووسائل الإعلام المختلفة والمراكز الثقافية....

وإذا نهض الباحثون بهذه الواجبات الثلاثة، ساعد ذلك على تقدم العلم وتطوره وازدهار مجتمعه.

وما هي الشروط في نجاح هذه الأدوار الثلاثة؟

لا يجب أن نغفل عن وجوب توفير للباحثين والعلماء والمفكرين البيئة المناسبة للبحث فالباحث يحتاج إلى توفر شروط موضوعية نذكر منها: الحرية كحرية التنقل والتعبير والاجتماع ولا يمكن للبحث العلمي أن يزدهر في جو القهر وانعدام الأمن.

ويأتي بعدها الجانب المادي حيث أن البحث يحتاج إلى وفرة الوسائل المادية والمالية والوثائق والتجهيزات.

وأخيرا، تأتي الظروف الاجتماعية الملائمة كالسكن اللائق والنقل المريح والراتب الكافي الذي يفي بضرورات الحياة مما يوفر للباحث الاستقرار النفسي الذي يجعله يتفرغ بكليته للبحث ولا ينشغل عنه بالتفكير فيما لا علاقة له به.

-كيف تفسر أن فكر مالك بن نبي أصبح عالميا بحيث يدرس في الكثير من الجامعات العربية والغربية؟

كان مالك بن نبي من كبار العلماء الجزائريين الذين كان لهم تأثير على الفكر الإسلامي بشكل خاص والفكر الإنساني بشكل عام.

وهو منذ بداية مشروعه "مشكلات الحضارة" وضع أسسا لبناء فكر إنساني بحيث كان يطمح إلى تأسيس تصور جديد للنهضة في العالم الإسلامي والعالم بشكل عام ينبنى على الفكر الإسلامي والإغريقي القديم والأوروبي الحديث.

وكان ذلك واضح من خلال حديثه عن شروط النهضة بشكل مجرد دون تخصيص وتعيين. وهذا ما يدل على أنه كان بتوجه بفكره إلى الإنسان بشكل عام ولم يقصد به المسلم خاصة.

ومما يؤكد البعد الإنساني لفكره هو ما نجده من رسائل دكتوراه أعدت عنه في الجامعات الأمريكية والأوروبية فضلا عن الرسائل الماجستير والدكتوراه التي قدمت عن فكره في الجامعات الجزائرية.

﴿جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بين الأمس واليوم﴾¹

-كيف تردون على ما يشاع على أن جمعية العلماء فقدت وزنها بعد رحيل رموزها التاريخيين الشيخ ابن باديس والشيخ الإبراهيمي؟

هناك الجمعية التاريخية التي مارست نشاطها الدعوي والإصلاحي في تاريخنا المعاصر، انطلقت من واقع استعماري قائم على تكريس التبعية التامة لفرنسا في مجالات مختلفة لعل أخطرها كان المجال الحضاري وما يحمله من مسخ للشخصية الجزائرية وهوية الجزائريين.

لقد كان النضال الأول يقارع الطرح الاستعماري، ويقوّض أركان مشروعه الثقافي. أما اليوم، فإن الجمعية تتحرك في واقع مختلف تماما.

التاريخانية هي التي توجه أحيانا قراءتنا للماضي، وتعطلّ بذلك تصوّرنا الموضوعي للحاضر، وتقيّد استشرافنا للمستقبل.

¹حاوره الطالبان: مالك أعمر ودولاش كتريم في إطار إنجازهما مذكرة التخرج حول جمعية العلماء المسلمين

الجزائريين.

وتقييم تجربة جمعية العلماء الحالية سيكون أكثر إنصافا في المستقبل، ليس مقارنة بإنجازات الجمعية الأولى، وإنما بما قدمته من أعمال قدمتها على ضوء معطيات جديدة للمجتمع الجزائري الراهن.

ما هو الفرق بين ما كانت عليه الجمعية قديما وما هي عليه الآن؟

اهتمت الجمعية القديمة بإحياء اللغة العربية وتعليم القرآن الكريم والتأكيد على الهوية الجزائرية، وحاربت كل ما يعيق الإنسان الجزائري على التحرر من الاستعمار. وأسست في سبيل ذلك مدارس في القرى والمدن لتعليم الجزائريين الذين حرمتهم فرنسا من التعليم. كما أنشأت الصحف لنشر الوعي القومي وربط الجزائر بمحيطها الطبيعي وهو العالم العربي والإسلامي.

أما اليوم فجمعية العلماء تواصل هذا العمل الدعوي والثقافي والتربوي، وتصدر أسبوعيا جريدة ناطقة باسمها، وهي جريدة البصائر العريقة. نعم في الماضي كان التحدي أكبر، والاستجابة كانت أكبر كذلك.

أما اليوم فمدارس جمعية العلماء تكمل أعمال المدرسة الجزائرية الرسمية. والتعليم أصبح مجانا وإجباريا على كل طفل جزائري. فعمل الجمعية هو سائر ضمن جهود التنمية للبلاد، وليس ضمن جهود التحرر كما كان وقت الاستعمار.

والجمعية تواصل جهودها الإصلاحية والتربوية، وتسعى لنشر المعرفة وثقافة التسامح والدفاع عن الثوابت الدينية والوطنية، ومد جسور التعاون والتكامل مع الجمعيات الأخرى التي تتفق معها في المبادئ والأهداف.

عرفت الجمعية خلال مسارها الطويل عدة معوقات، فما هي أبرزها؟

استأنفت الجمعية نشاطها كمؤسسة بعد غياب طويل. وقد استفادت من الانفتاح الديمقراطي الذي جاء بعد أحداث 5 أكتوبر 1988 ودستور فبراير 1989، فعادت إلى نشاطها وتأسست من جديد بفضل جهود مجموعة من العلماء نذكر منهم أحمد حماني وإبراهيم مزهودي وعبد الرحمن شيبان وعلي مغربي...

ومن أكبر المشكلات التي صادفتها هي المشكل المادي، فهي لم تستفد من مساعدات الدولة، وهي تسير شؤونها وتمول أعمالها ونشاطاتها المتعددة بأموال اشتراكات أعضائها، ومداخيل الإشهار التي تتحصل عليها عن طريق جريدتها البصائر، وكذلك هبات بعض المحسنين المتعاطفين معها.

ومازالت الجمعية لم تتحصل على مقر خاص بها لتباشر أعمالها على أحسن وجه. والمكان الذي تقيم فيه الآن ليس ملكا لها وهو ضيق لا يسمح بأداء مهام تربية وثقافية وإدارية في ظروف حسنة.

والعديد من الأمناء الوطنيين ليست لهم مكاتب لمتابعة نشاطات الجمعية عبر التراب الوطني، أو استقبال الباحثين والصحفيين والطلبة والزوار من داخل الوطن أو من الخارج.

وهناك على سبيل المثال مشروع مكتبة متخصصة في تراث جمعية العلماء في حاجة ماسة إلى فضاء واسع.

تعاني الجزائر من ظواهر خطيرة كالتنصير والانحلال الخلقي وطغيان المادة وانشغال الناس بدينامهم عن دينهم. كيف تساهم الجمعية في محاربة هذه الآفات؟

-صحيح أن المجتمع الجزائري يعاني من آفات اجتماعية عديدة. والجمعية تساهم في حلها عبر شعبها المنتشرة في القطر الجزائري في حدود إمكانياتها المتوفرة؛ ففي كل شعبة بلدية لجنة خاصة بمتابعة مشكلات الشباب والأسرة والفقراء والمحتاجين والتعاون مع الجمعيات الأخرى والسلطات الرسمية المحلية لحلها.

ونحن نعرف أن هناك مشكلات سواء ناتجة عن أسباب موضوعية أو غير موضوعية تحتاج إلى تضافر كل الجهود الحية في المجتمع، ولن تستطيع الجمعية وحدها أن تقضي على كل الآفات الاجتماعية والأخلاقية التي تزداد وتتضاعف في مجتمعا.

أما ما يخص التنصير، فإن الجمعية أوضحت عدة مرات مواقفها الراضة للحملات التبشيرية التي تستهدف الشباب الجزائري بشكل خاص.

ونشرت جريدة البصائر مقالات كثيرة عن هذه القضية، وكشفت نشاطات المبشرين عبر التراب الوطني.

ووضعت الجمعية المبشرين أمام التحدي ودعتهم للمناظرة العلنية، غير أنها لم تصلها منهم استجابة، ولا غرابة في ذلك فإن هؤلاء ينشرون أفكارهم وعقائدهم في السر والحفاء.

وطلبت الجمعية من العلماء الجزائريين والأئمة أن يبينوا للناس حقيقة التنصير، ويقدموا دروسا عن سيدنا عيسى ووالدته الطاهرة مريم عليها السلام.

جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تقوم بالتربية والتوجيه والوعظ، وتأمل أن ينصت الناس إلى خطابها الإصلاحية الذي يعالج المسائل التي تطرقنا إليها بالعلم والحكمة لتصون المجتمع من كل ما يهدده في وحدته ودينه وثقافته ومصيره.

- ألا ترون أنكم مقصورين وأنه فات الأوان لاستدراك ما فات ؟

نعم-كلنا مسؤولون عن الحالة الراهنة بايجابياتها وسلبياتها، ولكن بدرجات متفاوتة، لسنا راضين عن الشباب الذين ينتحرون يوميا بأشكال مختلفة. وظاهرة الهجرة غير الشرعية (الحرقاة) التي تتحدث عنها كل وسائل الإعلام ومجالس الناس تمس كل شرائح المجتمع، وتحتاج إلى حل سريع لا يحتمل أي تأخير وتأجيل.

وكذلك بالنسبة للمخدرات التي تهددنا مجتمعنا وبالخصوص الشباب. والأخطر أن هذه الآفة مست أيضا البنات والنساء، وهي ظاهرة جديدة على مجتمعنا المحافظ.

-ألا تعتقدون أن من وراء التنصير أياد ظاهرة وأخرى خفية؟

-إن التنصير في الجزائر ليس أمرا سهلا نظرا لتمسك الجزائريين بالدين الإسلامي، وقدموا صورة ناصعة في التمسك به حينما أفلحوا بإيمانهم كل المحاولات الاستعمارية لإبعادهم عن الإسلام. ويشهد المؤرخون الفرنسيون أنفسهم بذلك، ويضيفون بأن الدين الإسلامي كان دائما عنصرا محفزا للمقاومة ومدعما للتححرر.

فهل يجهل المنصرون الجدد هذه المعطيات التاريخية؟ أكيد لا! من أين استمدوا هذا الإصرار على تنصير شعب رفض رفضا مطلقا التخلي عن دينه وهو ضعيف ومستعمر، فكيف يقبله اليوم وهو قوي وحر؟

هل من كلمة توجهونها إلى الذين يبسؤون إلى الجمعية؟

إن الكلمة التي أوجهها إلى هؤلاء هي أن لا تعبثوا بمستقبل الجزائر، فيكفيها ما عانت منه تحت الحكم الاستعماري الفرنسي والدمار المادي والنفسي الذي عاشته خلال المأساة الوطنية في العشرية السوداء.

إن الجزائر اليوم في حاجة إلى الاستقرار ووحدة أبنائها من أجل بناء تنمية شاملة تعد بالمنفعة للبلاد والعباد.

❖ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ❖

❖ مدرسة للوعي ومواجهة التحديات الراهنة ❖¹

جمعية العلماء المسلمين لم تكن مجرد جمعية أيقظت الألباب ورسمت دربا منيرا للجزائريين وسط ظلام الاستعمار، بل هي مشروع حضاري أسسه خيرة رجال الجزائر عبد الحميد ابن باديس وثلة من المفكرين الذين تحرروا بعقولهم وارتقوا فكانت نظرتهم أوسع من مجرد تحرير البلاد، وما استمرار جمعية العلماء المسلمين لأكثر من 90 سنة من العطاء، إلا دليلا واضحا على قوة هذا المشروع.

جمعية العلماء المسلمين تزرع الأمل في نفوس الجزائريين:

يؤكد الدكتور مولود عويمر وهو مختص في التاريخ المعاصر والمسؤول عن الإعلام والثقافة على مستوى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، أن الجمعية تعتبر من أهم الحركات الفكرية والاجتماعية والثقافية في العالم العربي والإسلامي، وكانت نموذجا رائدا في العمل السياسي والثقافي والاجتماعي.

كان للجمعية صلة قوية بالمجتمع الجزائري الذي كان يعتره الجهل والتخلف والخوف، وكانت تحاول إخراجهم إلى مجتمع جديد يسود فيه العلم والمعرفة والنظر إلى المستقبل، لذا فأهم

¹ عالم الأهداف، 8 مارس 2021. حاورته زهور بن عياد.

مشروع سطرته، يقضي بفتح مدارس في كل قرية لتمكين الفقراء من التعليم، وفي ذات الوقت وضعت أفق للشعب الجزائري ليمنحه الأمل في التحرر من الاستعمار والاستعباد ليكون مثل باقي الشعوب العربية والإسلامية، لذا فالجمعية زرعت الثقة والطموح في الشعب الذي فقد كل أمل بعد قرن من الاستعمار.

يضيف الدكتور عويمر أن الجمعية حررت الشعب من هذا الفكر ليقوم من جديد ويؤسس مشروع سياسي وطني اجتماعي لمجابهة الاستعمار، فهذا الوعي السياسي والفكري هو ما جعله يفكر في استرجاع إنسانيته ويغير واقعه مهما كان من استعباد وظلم.

هذه الفكرة هي التي سعت الجمعية إلى زرعها من خلال نشاطات كثيرة منها فتح المجال لتعليم المرأة وفتح ورشات للنساء للعمل الحر، فهذا المشروع جاء موازيا للمشروع الفرنسي القاضي بطمس الهوية الوطنية وتكريس الاعتقاد بأن هذا الشعب يحتاج إلى حضانة استعمارية وتعطيل كل قدراته واستعباده.

المدرسة لبنة تحرير العقول وتعليم الفتاة سبيل الخلاص من الجهل

انطلاقاً من أفكار جمعية العلماء المسلمين الإصلاحية، آمن الشيخ ابن باديس بأهمية بناء المدارس لشحذ الهمم وإيقاظ العقول من سبات الانقياد والاستسلام، فكانت المدرسة الباديسية نموذجاً فريداً وخالصة تجربة فريدة وأفق واسع.

كان التعليم المدرسي يختلف عن التعليم المسجدي، من حيث البرنامج والشروط المادية. وفي هذا الصدد يؤكد محدثنا أن الطلبة الفقراء الذين كانوا يتمدسون في مدارس جمعية العلماء، يحصلون على منحة ومبيت ومطعم وطبيب معالج، وبالمقابل تكافى الجمعية الأطباء

وأصحاب المطعم بومضات إخبارية مجانا في مجلة "الشهاب" التي كان يصدرها الشيخ ابن باديس، وهذا عبر اتفاقيات تنص على الخدمات المتبادلة.

كانت نظرة الشيخ ابن باديس لتعليم المرأة استشرافية ولها أبعاد استراتيجية للقضاء على الجهل المتفشي في المجتمع الجزائري، وخلق جيل واعٍ، لذا بادرت جمعية العلماء المسلمين إلى فتح مدارس خاصة بالبنات، مثلا في تلمسان والجزائر العاصمة وغيرها من المدن الكبرى، وأصبحت المرأة تكتب وتجادل في جريدة البصائر، ومن أشهرهن زهور ونيسي التي كانت تدخل في جدال في القضايا الكبرى، التي تهم المجتمع وأصبحت المرأة متعلمة ومعلمة.

كما دعا الشيخ ابن باديس لتأسيس الكشافة الإسلامية بعد ما أعجب بالأفكار الكشفية لتعليم الأطفال طرق مواجهة الحياة، وتأسست الكشافة الإسلامية الجزائرية متأثرة بأفكاره.

جمعية العلماء المسلمين تعي دور الإعلام:

تشير المصادر التاريخية إلى أن مجلة الشهاب التي أسسها عبد الحميد ابن باديس سنة 1928 كانت الأرضية الخصبة التي تغذت منها الأفكار الإصلاحية، وحسب الدكتور عويمر: "فقد أولت جمعية العلماء المسلمين اهتماما بالغا بالصحافة وقطاع الإعلام باعتباره قطاعا حساسا يجب تقويته لإيقاظ الوعي والروح الوطنية للجزائريين الذين أنهكهم الاستعمار بكل مخططاته، وقد أسست الجمعية أربعة جرائد على التوالي هي: "السنة" و"الشريعة" و"الصراط" و"البصائر"، وكانت فرنسا في كل مرة تصادرها.

وتعتبر صحافة الجمعية متميزة بمقالاتها الفكرية المعمقة، فالجرائد الأولى كانت في نفس السنة 1933، ثم بقيت الجمعية بدون جرائد إلى غاية 27 ديسمبر 1935 حيث تأسست جريدة "البصائر" ولم تتوقف الجريدة إلى غاية بداية الحرب العالمية الثانية، نظرا لموقفها الراض لتأييد فرنسا، مما جعل السلطات الاستعمارية تزج بقيادات جمعية العلماء المسلمين في السجن ووضع بن باديس تحت الإقامة الجبرية.

تم التضييق على عمل جمعية العلماء المسلمين خاصة بعد مجازر 8 ماي 1945 أين وجهت اتهامات لقيادات الجمعية بالتحريض على العصيان والتظاهر، كما أن وفاة العلامة ابن باديس ومبارك الميلي الذي كان رئيس تحرير جريدة البصائر، أثر على جمعية العلماء المسلمين في هذه الفترة.

لم يطلق سراح قيادات الجمعية إلا في سنة 1946، وفي سنة 1947 عادت جريدة البصائر للظهور، وعملت الجمعية على هيكلة نفسها بعد كل ما تعرضت له، واستمرت البصائر في الصدور إلى غاية سنة 1956 أين تم توقيفها بسبب الثورة، وبقيت الجمعية متوقفة عن النشاط إلى غاية الاستقلال.

بعد الاستقلال منعت جمعية العلماء المسلمين من النشاط ومعها توقفت البصائر عن الصدور، إلى غاية سنة 1990، حيث انطلقت الجمعية في نشاطاتها المختلفة وأعدت إصدار جريدة البصائر ولكنها توقفت سنة 1993، نتيجة الظروف التي مرت بها الجزائر من تدهور الوضع الأمني، إلى غاية سنة 2000 أين استعادت نشاطها الى يومنا هذا،

ولا تزال البصائر لسان حال جمعية العلماء المسلمين وتوثق اليوم لكل نشاطاتها ومواقف الجمعية من القضايا الدولية والوطنية.

جمعية العلماء توقف نشاطاتها دون أعضائها:

بعد 1962 وافتكك الجزائر لحريتها واستقلالها، منعت جمعية علماء المسلمين من النشاط بسبب طبيعة نظام الحزب الواحد، إلى غاية سنة 1990 أي بعد صدور دستور 1989 الذي أتاح للجمعيات النشاط.

وفي هذا السياق يقول الدكتور عويمر: «في ظل الحزب الواحد بقيت الجمعية كمؤسسة متوقفة ولكن أعضائها كانوا ينشطون في الحياة العامة كعلمين للغة العربية ومفتشين وأئمة منهم أحمد حماني، عبد الرحمان شيبان...، وكانوا يشاركون بقوة في عدة نشاطات خاصة على مستوى وزارة التربية ووزارة الشؤون الدينية، والكثير من الشخصيات الذين اعتلوا مناصب هامة في الدولة كانوا خريجي معهد ابن باديس».

ويعتبر أحمد حماني أول رئيس للجمعية بعد الاستقلال، وتداول على رئاستها في الفترة اللاحقة، وعلي مغربي وعبد الرحمان شيبان، واليوم يرأسها الدكتور عبد الرزاق قسوم منذ 2011.

الجمعية تؤسس نوادي للشباب بالأمس وتتصدر المجتمع المدني اليوم

أولت جمعية العلماء المسلمين والمفكرين وأصحاب النظرة الثاقبة لمقومات الحضارة اهتماما بالغا بالشباب من خلال إنشاء فضاء ثقافيا وترفيها لهم جسدهته نوادي الشباب التي تضمنت عدة نشاطات خاصة بهم منها المسرح والثقافة، وتهدف هذه النوادي استقطاب

الشباب، وحسب الدكتور عويمر "فنوادي الجمعية كانت فضاء يؤسس لروح التجديد وهي تشكل حقيقة نهضة في الجزائر، خلقت بمبادرات الأعيان الذين سهروا على تمويلها."

في الوقت الحاضر الجمعية تواصل نشاطاتها في مختلف المجالات، منها التربوية، وفي هذا الصدد يؤكد محدثنا "لا تزال جمعية العلماء المسلمين مستمرة في رسالتها التربوية وهي اليوم لها مدارس وبعض النوادي، ولها مدرسة نموذجية في برج بوعريش تبدأ من الطور التحضيري إلى المتوسط.

أما فيما يخص الأعمال الخيرية والإنسانية فقد كان لجمعية العلماء عدة حملات للمساندة والتآزر في مناطق الظل والمناطق المنكوبة التي تعرضت للفيضانات، وفي مختلف أجزاء الأمة العربية والإسلامية.

جمعية العلماء المسلمين تساهم بقوة في مبادرات التضامن والتصدي لجائحة كورونا

قامت جمعية العلماء المسلمين بدور محوري في مجابهة الوباء من خلال مساعداتها التي شملت معدات ومستلزمات الوقاية من الفيروس، كما أنها نظرت لمسيرتها ومكاتبها في المجتمع الجزائري، والثقة التي تحظى بها فقد اختارتها الكثير من الهيئات والجمعيات في الخارج لتسلمها هبات تضامنية معتبرة، خاصة أجهزة التنفس الصناعي.

ومن جهة أخرى ساعدت المتضررين من الوباء خاصة في ولاية البليدة أين ظهرت الكورونا للمرة الأولى، وتم توزيع ملايين الأطنان من المواد الغذائية على سكانها، وكذا في مناطق الظل التي يعرف سكانها ظروفًا صعبة.

لا تزال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين مستمرة في عطائها لما يقارب القرن من الزمن،
مكيفة أدوارها مع متطلبات المجتمع الجزائري ضمن مشروعها الحضاري الذي آمن به رجالها
الأوائل وأورثوه للأجيال اللاحقة.

﴿ واقع الجامعة الجزائرية ﴾¹

كيف تفسر تدهور رسائل التخرج في الجامعة الجزائرية؟

لا شك أن مستوى رسائل التخرج في الجامعة الجزائرية تراجع في السنوات الأخيرة، وهي ظاهرة عامة تبه إليها الباحثون التربويون والمسؤولون عن التربية والتعليم في الدول العربية.

غير أن درجة التراجع تختلف طبعا من كل بلد إلى آخر، وهي مسألة خطيرة تحتاج إلى معالجة دقيقة لا تنفصل عن الإستراتيجية الشاملة للتنمية وبناء مجتمع متطور.

ما هي في نظركم أسباب هذا التراجع؟

لقد ساهمت عوامل عديدة في تدهور التعليم الجامعي بشكل عام، والتعليم الجامعي بشكل خاص. أذكر هنا على سبيل المثال بعضا منها.

إن المناهج التربوية هي مخ التعليم، فإذا صلحت صلح التعليم، وإذا فسدت فسدت التعليم وفسد معه المجتمع. والمدرسة أو الجامعة عندنا تربي التلميذ أو الطالب على تحصيل العلم بالتلقين والاستذكار الممل وتكديس المعلومات بدون بناءها، بينما

¹ حاوره حسن مرابط. لا أتذكر اسم الجريدة وتاريخ صدورها.

المطلوب هو أن تزرع فيه شغف التعلم، وحس النقد، والتفكير العلمي، وتبث فيه روح الإبداع.

هذه هي القيم التي تكوّن الإنسان الفعال، وتحثه باستمرار على الاكتشاف، وتدفعه دائماً نحو الابتكار والإسهام.

كما أن بعض القوانين لا تساهم بدورها في تطوير التعليم والبحث العلمي، فأنا شخصياً استغرب كيف أن الطالب غير مجبر على حضور المحاضرات، فالقانون يجبره فقط على حضور الأعمال الموجهة أو الدروس التطبيقية.

والكل يعلم أن المادة الدسمة للوحدة تقدم في المحاضرة وليس في الدرس التوجيهي.

أضف إلى ذلك، أن المدرّس الذي هو أيضاً طالب دراسات عليا بحكم إعداده أطروحة الدكتوراه غير ملزم بحضور على الأقل بعض المحاضرات التي يقدمها الأساتذة الكبار في المادة التي يطبق فيها.

إن غياب التكوين العميق والدائم على كل المستويات التعليمية الجامعية يؤثر سلباً على مستوى الطلبة والمدرسين والأساتذة.

والأستاذ الجامعي يختلف عن المعلم والأستاذ في مرحلتي الإعدادية والثانوية، فمهمته لا تقتصر فقط على التدريس، وإنما تشمل أيضاً البحث العلمي ليجدد معلوماته في مجال تخصصه، ويطوّر قدراته ويساهم بدوره في إنتاج المعرفة.

غير أن الكثير من الأساتذة الجامعيين يهملون هذا الجانب الأخير، ولا يشتغلون به إلا عند الضرورة أو الحاجة.

وينعكس ذلك على مستوى الطلبة، لأن الأستاذ الذي لا يبحث يبقى غير قادر على صناعة طالب باحث. فلا نستغرب بعد ذلك أن لا ترقى رسائل التخرج إلى المستوى المنشود.

أما الطالب فإنه يتحمل جزء من المسؤولية حينما لا يجتهد للتحرر من العقلية السكونية التي كسبها خلال المراحل السابقة، باعتبار الجامعة مدرسة كبيرة، فيواصل في تحصيله العلمي معتمدا فقط باستمرار على المعلومات التي يقدمها المدرس في القسم أو الأستاذ في قاعة المحاضرات.

ولا يبذل جهدا إضافيا في المطالعة للوصول بنفسه إلى مصدر المعرفة خاصة بعد التطور التكنولوجي الرهيب الذي عرفه العالم، والذي أنتج ثورة المعلومات ووسائط جديدة للاطلاع عليها بسهولة كبيرة وبسرعة فائقة.

كل هذا التحوّل المعرفي لم يستفيد منه بعد الطلبة في الجزائر إلا في حالات خاصة، أو أساءوا استغلاله حينما يلجؤون إلى الشبكة العنكبوتية لنقل بحوث جاهزة بشكل حر في عوضا من الاستفادة من الدراسات والكتب المعروضة على المواقع بقراءتها وتلخيصها وتحليلها ونقدها!

ما هي آخر مستجدات وزارة التعليم العالي بخصوص استنساخ الرسائل الجامعية
يعني هل اقترحت حلول أو قام الأساتذة وعمداء الجامعة بمبادرات في هذا الإطار؟

-تطرح هذه المسألة من حين إلى آخر، ثم لا نسمع شيئاً عن الإجراءات المتخذة من
طرف الهيئات الوصية للقضاء عليها باستثناء حالات قليلة تنقلها وسائل الإعلام
خاصة الصحافة المكتوبة. فالمسألة أخلاقية قبل أن تكون قانونية.

إن الذي يسرق جهود غيره يعتبر في كل الأديان والأعراف والقوانين سارقاً، وتعضم
درجة السرقة عندما يكون السارق من الذين ينتسبون إلى جلاله العلم وقدسيتها
التعليم وتربية الأجيال.

إن عدم معاقبة السارقين للرسائل الجامعية إذا ثبتت السرقة -طبعاً- هو تشجيع
للكسالى النائمين على الإقدام على الاعتداءات على الملكيات الفكرية من جهة،
وتعفين مجال البحث العلمي من جهة أخرى. وهكذا تتعطل الطاقات الحقيقية التي
تنتج المعرفة ولكن لا تقدر أعمالها، بل يكرم غيرهم عليها بالجوائز والترقيات.

لقد حان الوقت للاعتراف بالباحثين الجادين بمنحهم جوائز تقديرية كما هو سائد في
كل الدول المتقدمة، وتحفيز العلماء والأكاديميين على الابتكار والإبداع في مجال
تخصصهم، ومعاقبة كل من يسرق أعمال غيره.

وسوف يساعد كل إصلاح في هذا الاتجاه في استعادة الجامعة دورها الرائد في
التنمية الاقتصادية وتطور المجتمع واستقراره.

﴿جريدة البصائر والرسالة الاجتماعية للصحافة﴾¹

تعتبر جريدة البصائر أقدم الجرائد الناطقة باللغة العربية في الجزائر، وقد استطاعت الصمود رغم العقبات التي اعترضتها لعديد المرات، في رأيك كيف استطاعت الاستمرار؟

- تأسست هذه الجريدة في عام 1935، وهي أقدم جريدة عربية في بلاد المغرب، وثاني أقدم جريدة في العالم العربي بعد جريدة الأهرام المصرية. عرفت في مسارها الطويل عقبات متعددة لكنها استطاعت في كل مرحلة حاسمة من حياتها أن تتجاوز المعوقات، وتتغلب عليها لتواصل مسيرتها الفكرية والإصلاحية بفضل عزيمة القائمين على إدارتها، ورمزية عنوانها، ووفاء قرائها، وتميز كُتابها، وتنوع موضوعاتها، وسلامة مقارباتها.

ولم يتحقق كل هذا إلا بالحفاظ على هويتها التحريرية باعتبارها جريدة ثقافية فكرية إصلاحية، وكذلك بالاعتماد على الكفاءات العلمية في الاستكتاب من جهة، والاعتماد على القدرات الشبابية في إدارة الجريدة، فالمسؤولون والمحررون المتعمدون اليوم في الجريدة هم شباب لا تتجاوز أعمارهم 35 سنة كحد أقصى.

¹ جريدة الخبر، العدد 9475، 23 فبراير 2020 م، ص 18. حاورته لامية أورتيلان.

قدمت البصائر الكثير للفكر والثقافة في الجزائر خاصة خلال الثورة المجيدة، حيث ساهمت في التوعية وتثبيت العزيمة للتخلص من الاستعمار الغاشم والقضاء على الاستبداد في رأيكم ماذا قدمت هذه الجريدة بعد الاستقلال؟

الجريدة توقفت أثناء الثورة التحريرية بعدما التحق محرروها بالكفاح الوطني، ولم تصدر إلا في ماي 1992 في سلسلتها الثالثة بعد أن عادت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين إلى نشاطها.

واستمرت سنة واحدة ثم توقفت لأسباب مالية. وعادت إلى الظهور في سلسلتها الرابعة في 22 ماي 2000، وهي مستمرة إلى اليوم بدون توقف حتى بلغت عددها الألف (1000) لحد الآن.

ولقد رافقت الجريدة تطوّر المجتمع الجزائري وتناولت القضايا الكبرى التي شغلت اهتماماته، وفتحت صفحاتها لعدد كبير من العلماء والكتاب والمفكرين الجزائريين وغيرهم لينشروا أفكارهم، ويعبروا عن آرائهم، ويعترفوا بإنجازهم.

كما تابعت الجريدة أبرز الأحداث التي عرفها العالم المعاصر وناقشها كتابها بكل حرية ومسؤولية.

ولم تتخلف الجريدة عن مناصرة المسلمين في كل أنحاء العالم وتنقل معاناتهم، وتدعو إلى مناصرتهم، فلا يخلو على سبيل المثال عدد من جريدة البصائر من مقال عن فلسطين والفلسطينيين.

للدكتور عويمر علاقة وطيدة مع البصائر، حيث نشرت فيها العديد من المقالات والكتابات وعينت رئيس تحرير لها، اليوم ماذا تمثل لك هذه الجريدة العريقة اليوم؟

لم أقطع عن الكتابة في هذه الجريدة منذ قرابة عشرين سنة. كتبت فيها كل أنواع الكتابة الصحفية من مقالات، وحوارات، وتغطيات، ورحلات.

لقد أحببتها أولاً كقارئ وأنا أتصفح أوراقها الصفراء القديمة في المكتبة الوطنية بباريس عندما كنت طالب دراسات عليا في الجامعة الفرنسية، ثم باحثا وكاتبا عن الحركة الإصلاحية.

ثم سافرتي القدر إلى رئاسة هيئة تحريرها، وأجلس على الكرسي الذي سبق أن جلس عليه الشيخ الطيب العقبي وبعده الشيخ مبارك الميلي ثم الشيخ محمد البشير الإبراهيمي وغيرهم من هذه السلسلة الذهبية لرؤساء تحريرها.

ولقد حرصت منذ اليوم الأول أن أضع كل خبرتي التي اكتسبتها في باريس لعدة سنوات مع عدد من المجالات الثقافية والفكرية العربية التي اشتغلت معها، وأفيد بها جريدة البصائر.

ركزنا على نشر ملفات فكرية، واستكتاب المفكرين والعلماء المعروفين في الجزائر وخارجها، وإجراء الحوارات النوعية حول القضايا التراثية والراهنة...

في اعتقادك ومع التطور التكنولوجي للإعلام وتراجع الإعلام الثقافي في الجزائر بصفة خاصة، هل يمكن اعتبار احتفال البصائر بعددها الألف بمثابة التحدي والصمود، أم أن بقاؤها تقتضيه الأقدمية ووجوب الاحتفاظ بها والحفاظ عليها كإرث ثقافي فقط؟

نحن ملتزمون بالأميرين معا، فالجريدة تتكيف مع تطوّر المجتمع الجزائري وتتجاوب مع القفزة التكنولوجية التي عرفها العالم في الأعوام العشرين الأخيرة. فالأقدمية تعني لنا تراكم التجارب واكتساب الخبرة والتواصل بين الأجيال. ويترتب عن هذا كله الشعور بمسؤولية تاريخية، وهي ضرورة الاستمرارية للحفاظ على هذا الإرث الثقافي الذي هو ملك لكل الجزائريين والارتقاء به إلى مستوى تطلعاتهم.

هناك عدد معتبر من قُراء البصائر المنضبطين إن صح التعبير، من المتقاعدين من مختلف الوظائف العمومي كالمعلمين والأساتذة والمفتشين والصحافيين وغيرهم. وقد كانوا وسيظلون أوفياء للجريدة الورقية التي تشكل تقليدا من تقاليدهم الثقافية والوجدانية، فهم واضبوا عليها منذ سنين ويحرصون باستمرار على التمسك بها، فهم لا يجدون لذة في القراءة إلا وهم يتصافحون أوراق الجريدة.

ومن جهة أخرى تتعامل أسبوعية البصائر مع قُرائها الجدد أو الشباب بالاهتمام بالقضايا الراهنة ليس بمقاربة إعلامية بحتة التي يجدونها في الجرائد اليومية الأخرى، وإنما بمطارحة فكرية تغوص في أعماق المشكلة دون أن تغرقه في تفاصيلها العلمية أو الإدارية أو السياسية... فضلا عن إنشاء موقع إلكتروني للجريدة ودعمها بصفحة على مواقع التواصل الاجتماعي.

رسالة الصحافة ودور الإعلام في ترقية المجتمع¹

- أشرفتم في الآونة الأخيرة على جريدة البصائر موفقين، فكيف تقيمون التجربة؟

كانت تجربة رئاسة تحرير جريدة البصائر لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ثرية مع هيئة التحرير والكتاب والقراء. لقد حرصت منذ البداية على تحويلها إلى صحيفة فكرية في المقام الأول تناقش قضايا تراثية وتجب عن إشكاليات معاصرة لتنسجم مع إرث الجمعية وتسائر التطور الحاصل في العالم في جوانبه المتعددة.

وهكذا، وجهت مبكرا رسالة مفتوحة إلى الكتاب والمفكرين سميتها: "فكر لكي ترتقي" دعوتهم فيها إلى المساهمة في هذا التوجه الجديد، والتعاون المثمر من أجل تحقيق هذا المشروع الطموح، مقترحا عليهم الكتابة في عشرة محاور أساسية. وقد تجاوب معي عدد من الكتاب، فنشرت البصائر ملفات كثيرة أصبحت مرجعية في مجال الفكر الإصلاحي المعاصر.

أملّي أن يواصل المسؤولون الحاليون على الجريدة السير في نفس الطريق ويصدروا في كل شهر على الأقل ملفا كاملا في قضية من القضايا التاريخية والفكرية والمصرية، تشارك فيه النخبة الجزائرية بغض النظر عن انتسابها إلى جمعية العلماء أم لا.

¹ السفير، 14-20 ماي 2015، ص 13. حاورته سهام داوي.

- أين تقيم موقع البصائر الحالية بين تقليد بصائر الثلاثينات، والانفتاح على الممارسة الصحفية المعاصرة؟

أُكيد أن رمزية البصائر الأم راسخة في ذاكرتي وأشعر دائماً بثقل المسؤولية باعتباري رئيس التحرير السابع في السلسلة الذهبية التي بدأت في ديسمبر 1935 مع الشيخ الطيب العقبي، ومن جاء بعده، وهم الأساتذة العلماء: مبارك الملي، محمد البشير الإبراهيمي، عبد الرحمان شيبان، عبد الرزاق قسوم، عمار طالبي.

وكان لكل من هؤلاء بصماته في الجريدة. ونحن ندركها جيداً ونستلهم منها غير أننا متفتحون على تقنيات التحرير الجديدة والقضايا المعاصرة وحقول معرفية أخرى.

وكانت مسؤوليتي أكبر من هؤلاء الرواد لأننا نعيش اليوم في ظل تحديات كثيرة، أذكر منها: تضاعف عدد صفحات الجريدة أربع مرات، فبد أن كانت تصدر في 4 إلى 8 صفحات صارت اليوم تخرج في 24 صفحة.

فضلاً عن ذلك، انتشر الكسل بين المثقفين في زماننا في حين كان الرؤساء الأوائل يشكون من كثرة المقالات التي تصلهم إلى هيئة التحرير، ويعتدرون لكتابتها على عدم قدرتهم على نشرها كلها.

كذلك هناك مشكل غير موجود في عصرهم وهو عزوف كثير من الناس عن القراءة والمطالعة، خاصة بعد ظهور وسائل إعلام جذابة منافسة للصحف خاصة الانترنت والتلفزيون.

هل يخرج التغيير المفضي إلى المعاصرة جريدة البصائر عن خطها الرسالي؟

إن التطور الحاصل في عالم الإعلام يوفر للجريدة فرصا جديدة لنشر رسالتها الصلاحية والولوج في فضاءات ثقافية وفكرية واسعة.

فالجريدة بقيت محافظة على نهجها التربوي والثقافي ووفية لقراءها المنتمين إلى الطبقة الوسطى، ومسايرة لأحداث والتطورات في مجال الدين والاجتماع والثقافة...

وحرصنا دائما -نحن في هيئة التحرير- على نشر مقالات جديدة لكتاب معروفين في الساحة الفكرية الجزائرية أو الإسلامية، والانفتاح على الأقلام الشابة الواعدة، وإصدار الملفات.

كما نحرص أيضا على الترويج للنشاطات الفكرية التي نظمتها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أو غيرها من الجمعيات الثقافية والفكرية الجزائرية، والتعريف بالإبداع الجزائري في المجالات العلمية والأدبية.

أليس الوقت ملائما في نظركم لإطلاق فضائية ناطقة باسم جمعية العلماء؟

هذا الحلم يراود كثير من أبناء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. وهو طموح مشروع أمام تزامم القنوات العربية ورواج برامجها في الجزائر. لكن هل يكفي الطموح وحده؟

لا شك أن فتح قناة مسؤولية كبيرة من نواحي متعددة، ويحتاج إلى موارد مالية كبيرة وقدرات بشرية وبرامج هادفة.

لا أدري إن كانت كل هذه الشروط وغيرها متوفرة اليوم في جمعية العلماء التي لا تحصل على معونات من الحكومة، وليس لها استثمارات اقتصادية.

شخصيا أرى أن هذا المشروع ليس من أولويات المرحلة الراهنة. فالترهت حتى تتوفر الشروط لا يعني دليل عجز، وإنما دليل حكمة وإصرار على النجاح وإتقان العمل واستمراره.

وقفات إعلامية مع غزة¹

تقف هذه الزاوية مع مبدع عربي في أيام العدوان على غزة وكيف أثر على إنتاجه وحياته اليومية، وبعض ما يؤدّ مشاركته مع القراء

ما الهاجس الذي يشغلك هذه الأيام في ظل ما يجري من عدوانٍ إبادةٍ على غزة؟

الهاجس الأول الذي يشغلني هو معاناة إخواننا في غزة التي يعجز اللسان والقلم عن وصفها. والهاجس الثاني الذي يشغلني هو مآلات هذه الحرب التي عرفنا متى بدأت ولكن لا ندري متى تنتهي، وكيف تنتهي؟

إن القادر على الصبر والمصابرة والانتصار المعنوي والانتصار الميداني هو الذي سيحدد ساعة النهاية وشكلها. لذلك نجد الصهاينة وحلفاءهم الغربيين يستعملون كل أشكال الحرب النفسية والتضليل الاعلامي لكسر معنويات الفلسطينيين وأنصارهم في العالم بما فيهم الأحرار المقيمين في اسرائيل وأوروبا والولايات المتحدة الأمريكية.

لا شك أن الجميع -بدون استثناء أحد- خاسر في استمرار الحرب على المستوى الأمني والاقتصادي ليس فقط في الشرق الأوسط ولكن في العالم كله.

¹العربي الجديد، العدد 3643، 22 أوت 2024، ص 25.

فحرب غزة صارت الثغرة التي تتسرب منها المياه إلى السفينة، إذا لم يتدارك الجميع الخطر في الوقت السريع لوقفها فسيغرق الكل.

كيف أثر العدوان على حياتك اليومية والإبداعية؟

لم أكن من المدمنين على متابعة قنوات الأخبار الدولية أو المشاركين في برامج التحليل السياسي للوقائع الحاصلة في العالم، غير أن حرب غزة دفعتني للاهتمام بالشأن الدولي الراهن وقراءة كتابات خبراء العلاقات الدولية والإستراتيجية العسكرية. وقد وظّفت هذا الرصيد المعرفي الجديد في مشاركاتي في الندوات والبرامج الإذاعية المخصصة للمقاومة الفلسطينية.

كذلك طالعت كتبا وأبحاثا كثيرة عن تاريخ فلسطين المعاصر وكتبت العديد من المقالات والدراسات حول هذا الموضوع، ونشرت جزءا كبيرا منها في كتابي الأخير "المؤرخون العرب والقضية الفلسطينية" في 250 صفحة. فمنذ 7 أكتوبر 2023 صارت عقارب ساعتنا مضبوطة على توقيت غزة.

إلى أي درجة تشعر أن العمل الإبداعي ممكنٌ وفعالٌ في مواجهة حرب الإبادة التي يقوم بها النظام الصهيوني في فلسطين اليوم؟

ما يحدث في غزة كما وصفها الخبراء والعامّة حرب إبادة، فالنظام الصهيوني يقتل بكل برودة وبدون أي ذنب أطفالا ونساء وشيوخا بأخطر الأسلحة، ويدمر المدارس والمستشفيات ودور العبادة، ويشرد ملايين من البشر.

فتوثيق هذه المجازر ضروري للتاريخ والمستقبل، ولا شك أن لكل مبدع طريقته في تثبيت الصور والكلمة، ووسائله للتعبير عنها وتبليغها حتى لا تنسى آثارها ولا تتكرر مع شعوب مستضعفة في أماكن أخرى، وكذلك ليعاقب القانون في الوقت المناسب من ارتكب هذه الجرائم الانسانية!

وكلما انتشرت الحقائق وشاهد الناس فضائع الجرائم تجتد الأحرار في كل مكان ليضغطوا على حكوماتهم لتسرع إلى أجل إيقاف الزيف وإنهاء الحرب.

فنحن المثقفين العرب لا نملك إلا لساننا وقلمنا لندافع عن هذه القضية المصيرية المشتركة، ونقع غيرنا من المثقفين والعلماء من الشرق والغرب ليدعموا المقاومة الفلسطينية حتى تتحرر من الاحتلال.

لو قيض لك البدء من جديد، هل ستختار المجال الإبداعي أو مجالاً آخر، كالعامل السياسي أو النضالي أو الإنساني؟

النضال لا يعني دائماً الانخراط في حزب أو انتساب لنقابة ... وإنما النضال هو قبل كل شيء التزام بفكرة أو قيمة أو قضية بغض النظر عن الشكل الذي يعبر عنها صاحبها. أنا اخترت التعبير عن التزامي بالإبداع الفكري وهو خيار لا رجعة فيه ولا بديل عنه.

لقد أدمنت مبكراً على قراءة الكتب ومطالعة المجلات، ومارست الكتابة بشغف منذ ربع قرن. غير أنني أحب العمل الجمعي والنشاط الفكري، فانخرطت في جمعية

العلماء الجزائريين وكنت مسؤولاً عن لجنتها الإعلامية والثقافية، وعملت رئيس تحرير جريدتها الأسبوعية، ثم أصبحت رئيس تحرير مجلتها الفكرية الفصلية.

وأقدم منذ سنوات برنامجاً فكرياً تاريخياً أسبوعياً في الإذاعة الجزائرية. فأنا أحرص على العمل الأكاديمي وكذلك خدمة المجتمع الذي يحتاج إلى من يؤطره ويوجهه في الطريق الصحيح.

ما هو التغيير الذي تنتظره أو تريده في العالم؟

أنا عشت بين ثقافتين: العربية والغربية، درست في الجامعة الجزائرية والجامعة الفرنسية، وتعرفت على أصدقاء من كل الديانات والثقافات والحضارات، واستفدت من هذه اللقاءات، واكتشفت تقارب وجهات نظرنا في قضايا كثيرة.

العالم يحتاج إلى البصيرة لتجاوز الأزمات الكثيرة التي يعيشها حالياً، ويحتاج إلى الحكمة لمواجهة التحديات القادمة. البشرية كلها تسير نحو مصير واحد. ولامبالاة الناس وتمور بعض أهل القرار يؤديان بالإنسانية إلى حرب كونية أخرى تعيد الثألة القليلة التي تنجو منها إلى عصر الحجر. كل أملي أن يعيش جيلي والأجيال القادمة في عالم يسوده السلام والتسامح.

شخصية إبداعية مقاومة من الماضي تودّ لقاءها، وماذا ستقول لها؟

زار كارل ماركس الجزائر في نهاية القرن التاسع عشر للاستجمام والاستشفاء، وتجوّل وصال في البلاد وشاهم بأم عينيه الأوضاع الاجتماعية القاسية التي كان يعيش

فيا آنذاك أجدادي الجزائريون، غير أنه نسي خلال رحلته قيم العدالة التي دوّنها من قبل في كتبه المعروفة، ونسي الثورة على الظلم التي نادى بها في أوروبا.

فلو التقيت بهذا المفكر الملتزم الشهير سأقول له: لماذا لم تنتفض على الاستعمار الفرنسي في الجزائر؟ ولماذا لم تنصر لمقاومة الجزائريين بعد عودته إلى بريطانيا؟

كلمة تقولها للناس في غزة؟

غزة أعطت لنا نموذجاً في الصبر والإصرار على المقاومة حتى تستعد حريتها وتسترجع كرامتها مهما كان الثمن غالياً. غزة كشفت الغطاء عن الأعداء الظالمين والأصدقاء الخاذلين، وأيقظت الضمائر النائمة ونهت العقول الغافلة.

وصار اسم فلسطين وعلمها رمزاً للبطولة الصادقة والقوة الروحية المهمة. وأصبحت قضيتكم التي راهن الكثيرون على تهميشها في السنوات الماضية هي القضية الأولى في العالم الراهن.

وعادت بقوة إلى الواجهة وكسبت لها أنصاراً لو أنفقت ما في الأرض من مال ما كسبتهم وما نالت عطفهم وتأييدهم بالشكل الذي شاهدناه في شوارع العواصم الغربية وفي الجامعات الأوروبية والأمريكية.

■ كلمة تقولها للإنسان العربي في كل مكان؟

مستقبلنا مرهون بقدرتنا على تخليص ماضينا من كل المعطّلات التي تعوّق نهضتنا، وبتثبيت إرادتنا الخالصة لتحقيق التطور في كل المجالات مهما كانت التضحيات

ومهما بلغت ضريبة التطور. ولن يحصل ذلك التطور إلا بسواعد العرب المسلحين
بسلاح العلم العصري، والمزودين بالإرادة الصادقة والقائمين بالعمل الجاد للارتقاء
والسوؤد في عصر مضطرب لا يرحم الضعفاء. العالم يسير بمنطق القوة وليس بقوة
المنطق كما كان في عصر الزعماء الحكماء والقادة الراشدين.

حين سُئلت الطفلة الجريجة دارين البيّاع التي فقدت معظم أفراد عائلتها في
العدوان، ماذا تريد من العالم، أجابت "رسالتي للناس إذا يبحبوا دارين يكتبوا لي
رسالة أو أي شيء" .. ماذا تقول لدارين ولأطفال فلسطين؟

يا دارين ويا أطفال فلسطين ستشرق شمس الحرية والكرامة في فلسطين،
وتعودون إلى بيوتكم فرحين، وتبنون قصورا من الرمل على شواطئ غزة وأريحا،
وترسمون لوحات على جدران خان يونس وجباليا، وتكتبون قصائد الحياة على
سبورة مدارس دير البلح والنصيرات، وترسلون من القدس رسائل الشكر والأمل
إلى كل الأطفال وأحرار العالم.

﴿العالم في زمن الكورونا: الواقع والمستقبل﴾¹

اعتبر الدكتور مولود عويمر أستاذ الفكر المعاصر بجامعة الجزائر 2 أن الفترة الراهنة التي تعيشها الجزائر وبقية العالم جراء جائحة كورونا عبارة عن صورة أخرى من صور معاناة البشرية الكثيرة، حيث يقدم الأستاذ عويمر في هذا الحوار لـ "الخبر" نظرتة للعالم في هذه الفترة العصيبة.

- ككاتب مهتم بتاريخ الفكر المعاصر... كيف تقرؤون ما يمر به الانسان في الفترة الراهنة؟

حياة البشرية هو حصيلة الجدلية بين الخير والشر، ونتاج التراوح بين السعادة والشقاء، وتداول بين الفقر والرخاء. ولا شك أن كل الدول والحضارات ولدت ولادة عسيرة عبر العصور، فالقرن التاسع عشر كان مزدحما بالحروب والأمراض التي حصدت ملايين من البشر، وكذلك القرن العشرون الذي استهل عشريته الأولى بالحرب العالمية الأولى، وكذلك استهل أربعينته الأولى بالحرب العالمية الثانية.

¹الخبر، 29 أفريل 2020، ص 9، حاورته لامية أورتيلان.

ولم تتوقف الحن عند هذا الحد، فقد عانت الدول الأخرى وتألّمت كثيرا جراء حروب التحرير من الاستعمار أو الصراع الأيديولوجي بين الشرق الاشرافي والغرب الرأسمالي أو الحروب الأهلية لدوافع متعددة.

وإذا تغيرت أشكال الحروب وتنوعت محن الناس فإن ما نعيشه اليوم مع مرض الكورونا هو صورة أخرى من صور معاناة البشرية الكثيرة، وعقاب على تغوّل الإنسان المعاصر وتطرّفه في تقدير قدراته وغروره بقوته المادية والعسكرية.

أقول صراحة عندما قرأت كلاما للرئيس الأمريكي الحالي قبل شهر وهو يتبجح بالقوة العسكرية والاقتصادية للولايات المتحدة الأمريكية، ويفتخر بقدرة بلده على سحق من تشاء وتفعّل ما تشاء ولا راد لحكمها ولا حدود لهيمنتها، في تلك اللحظة تساءلت في قرارة نفسي: هل انتهى عصر الإنسانية ليبدأ عصر البشرية؟ للأسف لم يتأخر الجواب.

- لأول مرة في تاريخ البشرية نجد هما واحد يشرك العالم كله وهو وباء الكورونا..هل تعتقد أن هذا الهم سينتهي الى مصير واحد لهذا العالم المتشعب؟

الفيروسات كانت دائما تقتل الناس عبر التاريخ، وقد وثّقها المؤرخون في كتبهم وخلّدوها الشعراء في قصائدهم وسجلها الأدباء في قصصهم وعالجها الأدباء باكتشافاتهم، ولولا وسائل الاعلام المتطورة ومنصات التواصل الاجتماعي ووسائل النقل المتقدمة لما نال هذا المرض الشهرة بهذا الشكل، وانتقل بهذه السرعة من الصين إلى الدول

الأخرى، وأصاب الناس في مختلف المجتمعات التي تبعد آلاف الكيلومترات عن هذا البلد!

ولم يعد البلاء محصورا على الفقراء وإنما نال أيضا الأغنياء الذين وجدوا أنفسهم مغلوبين على أمرهم، وعاجزين عن المبادرة، ومضطرين لعلاج هذا المرض إلا باستعمال الطريقة القديمة التي كان يرجع إليها الناس في القرون الغابرة، وهي الحجر الصحي.

كان الهم الأكبر لأصحاب القرار المحلي أو الدولي الهيمنة السياسية والاقتصادية، ولقد أخطؤوا في تسيير شؤون العالم، وساهموا في تلويث الطبيعة وتدنيس الفطرة الإنسانية.

وهذا العبث لا يمكن له أن يستمر. ولقد جاء هذا الكائن الميكروسكوبي ليثبت لهم بشكل واضح حدود القوة البشرية وضعف الانسان وعجزه.

فهل سيهتمون في المستقبل بقضايا الصحة والمساواة الاجتماعية والمحافظة على البيئة، أم سيحاولون استدراك الخسائر المالية الضخمة المترتبة عن هذه الأزمة العالمية، ولا يزالون في سبيل تحقيق هدفهم بالمنظومة القمية؟

لقد صارت البشرية في حاجة إلى فلسفة حكم راشدة جديدة يشارك في رسمها كل الدول بغض النظر عن قوتها أو ضعفها لأن كل ما يترتب عنها لن يضر الدول الكبرى فقط وإنما سيسبب العالم كله خاصة لما تكون تداعياتها خطيرة.

- بعد اقشاع هذا الوباء ان شاء الله هل تعتقد ان العالم سيفضي الى ميلاد انسان جديد يكون أكثر حيطة ووعيا، ويكون قادرا على التحكم في الأمراض والابوئة؟

-كل السيناريوهات التي يقدمها اليوم العلماء والمفكرون وأهل القرار حول المستقبل هي سيناريوهات سوداوية.

من غير شك أن العالم سيتضرر كثيرا من انتشار هذا المرض الذي لم ينحصر في الدول الفقيرة، أو لم يمس فقط الضعفاء، وإنما مس العالم كله بكل شرائحه الاجتماعية.

لقد أصاب اقتصاد العالم بالشلل وغلقت الدول أبوابها وغرقت كل واحدة في حل مشكلاتها على انفراد. كما زادت ظاهرة القرصنة في رابعة النهار بين الدول على الاستحواذ على لوازم الوقاية والأجهزة الطبية في انتشار الأناية وتعميق المشكل وتأخير الحل.

لكن أمام كل هذه المشاهد الأليمة نرى الاقتصاد يتعافى رويدا رويدا وينعش في بعض القطاعات كقطاع الأغذية والأدوية ووسائل التنظيف والأجهزة الطبية. وكذلك ترتفع أسعار البترول وستخفف الأعباء المالية على العديد من الدول العربية وغيرها.

وتحسنت أوضاع البيئية التي استفادت كثيرا من الحجر وتعطل المصانع الكبرى عن العمل وتوقف حركات السيارات وغيرها عن إنتاج التلوّث.

كما قُرب الحجر الصحي الناس بعضهم بعض فاستعادوا القيم العائلية المغيبة واستردوا الدفاء الأسري المفقود. كما تعوّد الموظفون على العمل من بعيد وما يترتب عن ذلك من راحة النفس وتقليل المصاريف وادخار للجهد وريح للوقت.

ولم يستثنى من ذلك اجتماع المنظمات الكبرى كـمجلس الأمن والمنظمة العالمية للصحة، وقمة زعماء الدول المصنعة وغيرها التي تنظم جلساتها واجتماعاتها عن بعد.

إن هذا الحل هو مساعد للتدرب على مواجهة الكوارث والأزمات القادمة لكنه لا يصلح أن يتحوّل إلى طريقة جديدة مفروضة للعمل في المستقبل خاصة في مجال التربية والتعليم الذي له خصوصياته.

كذلك اهتم العلماء بالبحث عن الدواء المناسب لهذا المرض الجديد ليوقفوا حركة انتشاره وبعثوا العدة لمواجهته بأريجة حينما يعود مرة أخرى.

وفي هذا الشأن رأينا تنافسا شديدا بين المخابر الدولية لإنتاج اللقاح وصناعة الدواء والسبق لإنتاج الأجهزة الطبية.

وهذا في حد ذاته مؤشر خير للبشرية للخروج من محنتها الراهنة والمضي قُدماً نحو المستقبل المجهول.

هل تعتقد أن هذا الوباء قد عرى الأنظمة العالمية كما يشيعه البعض، ووضع الأنظمة المتطورة بالتوازي مع المتخلفة؟

لا شك في ذلك. يكفي أن ننظر إلى حصيلة الأشخاص المصابين بهذا المرض وكذلك عدد الموتى في هذه الدول الكبرى التي تبوأَت المراتب الأولى في الترتيب العالمي للتضرر من هذا الفيروس.

الأرقام تكشف يوميا حجم المأساة في الولايات المتحدة الأمريكية وإيطاليا وإسبانيا وإيطاليا وألمانيا وفرنسا وبريطانيا وبلجيكا وسويسرا وهولندا وكندا... الخ.

ولقد شاهدنا في القنوات الإخبارية العالمية استغاثة الأطباء والممرضين الأوروبيين الذين لا يجدون أبسط الوسائل الطبية لمواجهة المرضى المقبلين على مستشفياتهم. وقد مات العديد من الأطباء وهم يزاولون أعمالهم بكل تضحية وشجاعة وأجسادهم مكشوفة للمرض بدون وسائل الحماية لقلتها وندرتها...

وكانت سلوكيات الناس متشابهة في كل مكان سواء في الدول المتقدمة أو في الدول المتخلفة، هاجموا على المحلات التجارية لشراء البضائع فوق الحاجة وتخزينها في بيوتهم. واحتكرت الدول المعدات الطبية ولوازم الوقاية ومنعتها عن الآخرين، وشمل المنع أحيانا أفراد البلد الواحد.

ومما زاد الوضع الراهن تأزما هو عدم التنسيق بين الدول لاستجابة هذا التحدي الميكروبيولوجي، ووضع استراتيجيات مشتركة لمحاربته، بل واجهوا هذا الوباء بمزيد من الأنانية خاصة بين الدول الأعضاء في الاتحاد الأوروبي الذين تركوا إيطاليا وإسبانيا

تواجهان وحدهما قدرهما المحتوم، بينما جاءهما المدد من الدول التي كانت تعتبرها من قبل في قائمة أعدائها مثل الصين وروسيا.

هل ستتغير الخريطة الاستراتيجية العالمية في المستقبل تحدد ملامحها "التجربة الكورونية" أم سيبقى العالم كما هو لأنه لم تظهر بعد القوى العظمى الأخرى البديلة التي تحل محل القوى العظمى الحالية وتسير بالعالم نحو وجهة جديدة بأفكار والنظم السياسية الأخرى؟

إن الخاسر الأكبر في هذه المعركة الراهنة هو النمط الحياتي الغربي الذي سيفقد بريقه بعدما اكتشفت كل الدول قدرتها -بغض النظر عن حجم هذه القدرة- في مواجهة وحدها الأزمة بحلول محلية ومبادرات ذاتية.

لقد عادت كل دولة إلى ذاتها والانتكال على النفس لحل أزمتهما بعد أن تخلى العالم الغربي عنهم لانشغاله بمشكلاته التي عجز هو أيضا عن حلها، وظهر ضعفه للعيان في أول أزمة داخلية صنعها فيروس مجهري لا يرى بالعين المجردة!

المحوّر الثالث:

بين حضارتين: الإسلامية والغربية

﴿الترجمة جسر إلى فهم الآخر﴾¹

- الأستاذ مولود عويمر أين هو موقعه من الوضع الراهن؟

- هو كائن ثقافي، وكأني مثقف هو حامل لهاجس النهضة والتنمية يساهم بقدر المستطاع في الحراك الثقافي والفكري في الجزائر والخارج. فالمثقف مسؤول عن خدمة مجتمعه بما يسمح بتقديمه في المجالات المختلفة.

-ماذا نتجربنا عن تعليم اللغات في الجزائر؟

- إن تعليم اللغات في الجزائر مازال متأخرا، فهو مركز على الجانب النظري بتلقين الأبجديات وحفظ القواعد في حين أن اللغة هي ممارسة وأسلوب وخطاب يتفاعل مع الآخر بسرعة ويتكيف معه بشكل تلقائي في غالب الأحيان.

ومن جانب آخر، نلاحظ أن المقصود هو تعلم اللغة وليس اللغات إذ بقيت اللغة الفرنسية هي السيدة بمحاسنها وسيئاتها، وعجزت المدرسة أو الجامعة الجزائرية عن ترسيخ التعدد اللغوي خارج اللغتين العربية والفرنسية.

¹ جريدة الديار (الجزائر). لم أسجل تاريخ صدور العدد ورقم الصفحة. حاوره محمد فخر الدين ترائي.

فالحاجة اليوم ونحن نعيش العولمة إلى كسب لغات كبرى أخرى لمسايرة ديناميكية التطور الحاصل في الدول المتقدمة مثل الولايات المتحدة الأمريكية وألمانيا واليابان والصين.

نعم، فهناك أفكار جديدة وإبداعات كثيرة في كل مجالات العلم والمعرفة والخدمات عبر هذه الفضاءات العالمية أنتجت في لغتها الأصلية. فهل ننتظر حتى تترجم إلى اللغة الفرنسية أو بشكل أقل إلى الإنجليزية لكي نعرّهم؟ إنه الواقع الذي يذكرنا باستمرار بضعف إرادتنا وإصرارنا على العيش في التبعية.

لقد أصبحت مشكلة كتاب اللغة الأجنبية هاجس المثقف والدارس الجزائري لعدم قدرته على قراءته، وهذا لقلة توفر مادة فكرية معربة في السوق المحلية!! بماذا ترتبط أسباب قلة المعرفة بقراءة اللغة الأجنبية عند الطلبة عامة؟

- ألاحظ أولاً أن هناك جهود عديدة في العالم العربي في الترجمة، وتعتبر الكويت رائدة في هذا المجال من خلال إصدار شهريا - وذلك منذ سنوات- كتاب "عالم المعرفة"، ومجلة "الثقافة العالمية"...الخ.

وأظن أن أزمة استيراد الكتاب من العالم العربي تفاقمت في السنوات الأخيرة. فإنا أتذكر في نهاية السبعينيات والثمانينيات كانت تصل إلى الجزائر كثير من الكتب والمجلات العربية، وأنا شخصياً اقتنيت منها الكثير رغم أنني كنت أسكن بلدة صغيرة ومعزولة وبعيدة عن الحواضر والمدن الكبرى. وكُنت رصيدي العلمي من هذه المطالعات المبكرة.

والطالب الجزائري أو العربي في متناوله اليوم وسيلة جديدة ترفع عنه كل الحواجز وهي الانترنت إلا أنه قليل المطالعة قصد تكوين نفسه وتعميق معارفه وترقية مستواه المعرفي واللغوي خارج المدرسة أو الجامعة.

فالشبكة العنكبوتية تتوفر للإنسان المعاصر مكتبة لا حدود لها، فهو يستطيع أن يطلع على آلاف الكتب والمجلات دون أن يتحرك من كرسيه أو يغادر بيته أو بلده.

ولكن هل وظفنا هذا الاختراع المذهل في مجال القراءة والكتابة والبحث؟ أعترف أن الكثير من الطلبة والمتقنين لم يكتشفوا بعد أسرار الانترنت وقدرته على تقديم خدمات لا تحصى في المجالات السابقة.

فكثيرا ما سمعت من طلبتي أنهم ما استطاعوا مطالعة المصادر والمراجع التي وجهتهم إليها بحجة أنها غير متوفرة في المكتبة الجامعية أو في غيرها. فأسألهم: هل بحثتم عنها في الانترنت وقيمتم بتحميلها؟ فكان الجواب في غالب الأحيان بالنفي!

أما فيما يتعلق بمشكلة قراءة اللغة الأجنبية، فهذا مرتبط بالأساس بتكوين الإنسان في المراحل المختلفة من حياته.

لا شك أن المدرسة هي الموجه الأول للاهتمام باللغات وتعلمها فإن قام المدرس بهذا الدور تربي التلميذ على تذوق اللغة خاصة إذا ساعدته الأسرة على استعمالها وتداولها.

غير أن هنالك عوامل أخرى اجتماعية وثقافية أخرى تتحكم في هذه العملية. وهي صناعة بيئة مكثفة بذاتها لا يشعر فيها الفرد بالتحديات الكبرى ولا يملك فيها الطموحات والآفاق.

كيف يقدم الطالب على دراسة الفلسفة القديمة ولا يفكر في تعلم اللغة الإغريقية؟ وكيف يتخصص الباحث في التاريخ الوسيط وهو لا يعرف اللغة اللاتينية؟ وكيف يبدع في العلوم الحديثة وهو يجهل اللغات الأوروبية الكبرى؟ إلى غير ذلك من الأمثلة.

إن اكتساب لغة أخرى على الأقل إلى جانب اللغة العربية أصبح ضرورة علمية خاصة بالنسبة للباحث وطالب الدراسات العليا. فلا يعتمد دائما على الترجمات الجاهزة بصحتها وضعفها، فليطلع مباشرة على الأصول خاصة في تخصصه الضيق لتكون أعماله رصينة، ونتائج أبحاثه دقيقة.

ترجمة الكتب مرتبطة بمنهجية التعليم التي تعتمدها معاهد الترجمة في الجزائر، ونخص بالذكر الكتاب العلمي الذي يظل يتسيد على المجالات الأخرى، هل يخاف طلبة معاهد الترجمة من ترجمة الكتاب العلمي؟

- إن ترجمة الكتاب في أي تخصص كان يتطلب ثروة لغوية وأيضا معرفة عميقة بالموضوع المترجم. فأغلبية طلبة معاهد الترجمة الجزائرية قدموا من الأقسام الأدبية، ويدرسون فيها المواد الأدبية، فكيف يقدر واحد منهم على ترجمة الكتاب العلمي سواء في الرياضيات أو الفيزياء أو البيولوجية الخ.

في هذه الحالة، يكون الحل في التعاون بين المختصين في اللغات والعلوم. غير أن ما هو سائد في العالم المتقدم هو أن عالم الرياضيات هو الذي يترجم الكتب الهامة في تخصصه. وكذلك يفعل العلماء الآخرون كل في تخصصه.

مدارس ومعاهد اللغات الخاصة تؤكد أنها قادرة على تفعيل دورها في تكوين جيل يتقن اللغات الأجنبية، في حين أن مدرسة عمومية أثبتت عجزها في فعل هذا والدليل هناك طلبة في الجامعات لا يفقهون أي لغة أجنبية. كيف تشرح هذا الواقع؟

- صحيح، فتعدد اللغات ظاهرة غائبة عند الطلبة. فقليل منهم من يحسن اللغة الفرنسية وأقل منهم يعرف اللغة الإنجليزية.

أما اللغات الأخرى كالألمانية أو الإيطالية أو الأسبانية فهي غائبة تماماً باستثناء ثلة قليلة التي تدرسها في كليات اللغات والترجمة. وكل ما نسمعه من كلام حول إنشاء جيل يتقن اللغات الأجنبية يعد تناقضا مع الواقع.

فلا بد من وضع إستراتيجية البناء وليس التأكيد، بترسيخ النوعية قبل الكمية، بالتأكد على الممارسة والتطبيق وعدم الاكتفاء بالنظري.

إن اللغة كالرياضيات هي في حاجة دائمة إلى التمارين؛ وتمارين اللغة هي استعمالها يوميا في الحديث والقراءة والكتابة والبحث. فكيف يتعلم طالب اللغة الانجليزية هذه اللغة وهو لا يشاهد القنوات البريطانية أو الأمريكية، ولا يقرأ آدابها ولا يطالع جرائدها؟

نعم، إن البعض يخشى من المضمون الثقافي لهذه اللغات الأجنبية، وما تحمله من مخاطر على هوية الشباب العربي غير أن حل هذه الإشكالية هي مهمة المسئولين على التربية وواضعي المناهج، فليحرصوا على تعميق ثقافة التفكير والنقد، فيحصن الطالب أو الشاب العربي نفسه بنفسه قبل أن يساعده على ذلك غيره.

وكيف كانت تجربة إصلاح المنظومة التربوية في نظركم؟

- إن إصلاح المنظومة التربوية منذ سنوات لم تحدد أفقها، واختيار النماذج المناسبة لإعداد التلميذ أو الطالب المنشود. لا شك أن هناك إنجازات قد تحققت، غير أن هنالك أيضا تراجع ألاحظه شخصيا كل سنة في الطلبة الجدد الذين التحقوا بالجامعة.

ففي عصر العولمة، نحتاج إلى طالب متفتح ويقظ ومتجدد وطموح، فعالمه يتغير بسرعة فائقة والعلم فيه يتطور بشكل رهيب، ولا مكانة فيه إلا للأكفأ والأفضل.

هل استطاعت المنظومة التربوية أن تزرع فيه قيم التفكير والنقد وتجديد المعارف، وإتقان العمل والقدرة على المنافسة، وحب التميز والتفوق...الح؟ أم أن هاجس المنظومة التربوية هو تلقين المعلومات الكثيرة والحث على حفظ المتون دون مراعاة لسن التلميذ وقدراته واستعداداته وبيئته؟

إننا لم نحقق بعد التلميذ أو الطالب المنشود رغم كل الجهود والإمكانيات المسخرة لأن الحلل يكمن في المنهج والرؤية قبل أن يكون في الوسائل.

أسالت قضايا الجزائر المستقلة الكثير من الخبر بعدة لغات، خصوصا المذكرات التي تترشق بين أطراف كانت فاعلة في صناعة التاريخ في الجزائر. ألا ترون أن مثل هذه المؤلفات يتوجب ترجمتها إلى العربية لتمكين النخب من 'قراءة ما يكتب عنهم؟

- لا شك أن هذه الظاهرة التي تجددت بعد صمت رهيب طويل مفيدة للتاريخ والتواصل بين الأجيال. لقد صدرت مذكرات عديدة في الستينات والسبعينات لصناع الثورة وقيادة المؤسسات الثورية من المجلس الوطني للثورة الجزائرية والحكومة الجزائرية المؤقتة...

فقد نشر حسين آيت أحمد وفرحات عباس ومحمد لبحاوي... كتبنا تضم صفحات من تجربتهم في الحركة الوطنية والثورة التحريرية. وكانت كلها مكتوبة باللغة الفرنسية. وترجمت معظمها إلى اللغة العربية في السنوات الأخيرة.

وأما المذكرات المنشورة مؤخرا فالعديد منها مكتوبة مباشرة باللغة العربية ورأينا كيف ساهمت مذكرات علي كافي في تنشيط النقاش والجدل حول بعض محطات الثورة الجزائرية.

وقد شاهدنا أيضا تزامم الناس لاقتناء مذكرات الطاهر الزبيري المجاهد المعروف وقائد أركان الجيش الجزائري في عهد الرئيس هواري بومدين.

إننا اليوم في حاجة إلى مذكرات المفكرين والمثقفين والعلماء الذين يزهدون في الكتابة عن تجاربهم باستثناء الدكتور أبو القاسم سعد الله الذي نشر يومياته التي بلغت لحد الآن 6 مجلدات ضخمة.

ما هي رسالتكم إلى هؤلاء؟

- ومن هذا المنبر الإعلامي أتوجه إلى المثقفين والمفكرين الجزائريين وأحثهم على إصدار مذكراتهم قبل فوات الأوان.

ومن جهتي أصدرت مؤخرا كتابا سميتُه "مشاهد من عالم الذاكرة" تضمن الكثير من الذكريات ورحلاتي.

لقد دخلت الإنسانية رحاب الحضارة من باب الكتابة والتقارب والتواصل بين الشعوب والدول، وعن طريق العلاقات التجارية والترجمة وغيرها من وسائل الاتصال.

ونحن اليوم في أمس الحاجة إلى ترجمة كل ما أنتجه العقل البشري في مختلف العلوم والآداب والفنون، لتتواصل مع غيرنا في طريق التقدم والرفق والازدهار. وهو السبيل الذي اختاره أجدادنا حينما ترجموا كنوز العالم وطوروها فأسسوا حضارة يشهد لها الكل بالعظمة.

نظرات في الإستشراق¹

موضوع اليوم يتمثل في طرح معادلة العلاقة التي تربط وعينا بالغرب ووعي الغرب بنا من خلال متغير أو مؤشر الإستشراق، في حفريات، وخلفياته، وكيف ساهم إلى حد بعيد في بلورة نظرة مشوهة للغرب بالعالم العربي والإسلامي، ومن ثمة تأثرنا بهذه النظرة التي شوهدت نظرنا لأنفسنا قبل أن تشوّه نظرنا إلى الآخر. ولإثراء هذا الموضوع نتشرف باستضافة الباحث في تاريخ الأفكار والأستاذ بجامعة الجزائر الدكتور مولود عويمر.

بحكم أنك مختص في التاريخ وأساسا في تاريخ الأفكار، من أين تبدأ العلاقة بين الاسلام والغرب؟

- علاقاتنا بالغرب أو العالم الغربي هي علاقة قديمة. وإذا أردنا أن نقف بسرعة كوننا مسلمين في الطرف الآخر من المعادلة، تبدأ - في تصوراتها وذهنياتها الثقافية والدينية- مع بداية رسالة الإسلام، خاصة وأن هذا العالم الغربي الذي كانت تمثل جزء منه الدولة البيزنطية يعيش جغرافيا الشرق العربي، وتواجد اجتماعيا واقتصاديا في شمال إفريقيا والبحر الأبيض المتوسط عموما. فالاحتكاك الحضاري كان قائما بين العرب والروم، وتعمق مع الفتح الإسلامي للشام.

¹ حوار سجله الكاتب في الإذاعة الثقافية ضمن برنامج "من فكرنا المعاصر" الذي يعده ويقدمه الدكتور يوسف حنطابلي، وهو أيضا أستاذ علم الاجتماع بجامعة البليدة 2.

وأخذ المسلمون في عهد ولاية معاوية بن أبي سفيان من أنماط المعيشة، ونظم الحكم والإدارة البيزنطية، ثم عممها معاوية على كل الدولة الإسلامية بعد أن أصبح خليفة على المسلمين. وسار على نهجه الخلفاء الأمويون فيما بعد. فهذا احتكاك حضاري مدني إن صح التعبير فضلا عن الاحتكاك العسكري. ثم تطوّرت العلاقات في العصر العباسي من خلال ترجمة ما أنتجه العقل الإغريقي.

- في ذكر العقل اليوناني، هناك من يشك أن العقل اليوناني هو عقل غربي، لأن الغرب احتكر الحضارة اليونانية واعتبرها حضارة غربية رغم أنها بتواجدها الجغرافي لم تكن غربية أو شرقية.

- في تلك الفترة يصعب الفصل بين الشرق والغرب من الناحية الجغرافية والحضارية، ففيه تداخل للشعوب والديانات والقوميات التي تشكل حضارات البحر الأبيض المتوسط. والاحتكاك كما قلنا استمر مع الترجمة في عهد العباسيين، وتحول الاحتكاك إلى تقارب في الأندلس.

وإزداد هذا التقارب في عهد الدولة العثمانية حيث توسع العثمانيون في أوروبا الشرقية، وأسسوا دولتهم على أنقاض الإمبراطورية البيزنطية، وحكموا العالم من عاصمتها القسطنطينية بعد أن فتحها محمد الفاتح في سنة 1453 م. ودخلت العديد من الشعوب الأوروبية إلى الإسلام، وأصبحت تشكل جزءا من النسيج الاجتماعي للدولة الإسلامية.

ولا بد أن نشير هنا أيضا إلى الحروب الصليبية التي لم تكن عسكرية فقط، فقد أخذت أبعادا أخرى، فاكتشف المحاربون الصليبيون من خلالها صورا مغايرة للأفكار التي كانت

ترجّح لها الكنيسة عن المسلمين باعتبارهم وحوشا وهمجين وكفاراً إلى غيرها من الأوصاف الدنيئة¹... فلما احتكوا بهم وجدوا غير ذلك، وأكثر من ذلك تأثروا بالعادات والتقاليد العربية الإسلامية، وأخذوا بنمط العيش السائد في بلاد الشام التي كانت مسرحاً للأحداث.

أما في العصر الحديث، فأشير إلى حملة نابوليون بونابرت على مصر في عام 1798، وأنه حاول أن يتعرف على الشرق، فجاء به 100 عالم بقيادة عالم الطبيعيات والرياضيات مونغ لدراسة مصر، فقام هؤلاء العلماء بمحضرآت أثرية ودراسة عميقة للحضارة المصرية، وألفوا كتاباً ضخماً عنوانه: "وصف مصر" فيه معلومات كثيرة عن هذا البلد في مجالات مختلفة.

هل يمكن أن نقول أن الغرب الحديث يختلف عن الغرب التقليدي القديم باعتبار الحروب الصليبية ثقالة أو طفرة في تغيير نوعية عقلية الغرب وثقافته؟

- العقلية الغربية التي مثلتها الحضارة البيزنطية تختلف عن العقلية التي ظهرت في عصر النهضة في إيطاليا ثم في فرنسا... فهنا التغيير حصل من الداخل. في حين أن الحضارة البيزنطية هي إن صح التعبير حضارة غربية في الشرق، والثانية حضارة غربية في الغرب. فالدولة البيزنطية التي تحدثنا عنها كانت تحتل جزءاً كبيراً من الشرق، وتسمى بالإمبراطورية الرومانية الشرقية.

¹ Jean-Jacques Waardenburg. L'islam dans le miroir de l'Occident. Paris, La Hay-Mouton, 1963.

ولهذه الدولة خصوصياتها كاعتناقها للمذهب الأرثوذكسي الذي يجد جذوره في المشرق العربي الذي نشأت فيه المسيحية. في حين أن العالم الغربي الحديث كان كاثوليكيًا قبل أن تظهر حركة الإصلاح الديني التي تزعمها مارتن لوتر وجون كالفن.

ورغم أن المذهب الكاثوليكي تحرر من الأرثوذكسية، وجدنا العقل الغربي الحديث في عصر النهضة يثور على المذهب الكاثوليكي، ويطالب بإصلاحه والتحرر أكثر، وسمي هذا المذهب الجديد بالبروتستانتية أي الاحتجاج الذي ظهر في ألمانيا وسويسرا، ثم انتشر في مناطق أخرى من أوروبا الغربية.

فهذه العقلية الجديدة للغرب تختلف عن العقلية الغربية التي ظهرت في المشرق، وهي التي ستحتضن حركة النهضة في أوروبا بين القرنين 14 و16. ثم بهذه العقلية الجديدة ستهيمن أوروبا على العالم الشرقي من خلال الاستعمار. فبعد حركة النهضة ظهرت الأفكار الجديدة التي تدعو إلى تحرر العقل.

وبعد النهضة الفكرية، انتقلت أوروبا إلى التطور الاقتصادي فاضطر هذا الغرب الصغير إلى البحث عن غرب كبير، فكان التوسع نحو شمال إفريقيا والعالم العربي والجهة الغربية التي قادته إلى اكتشاف قارة أمريكا خطأً لأن هدفه هو احتلال الشرق واستغلال ثرواته عن طريق مسالك أخرى مبتعدا عن البحر الأبيض المتوسط الذي تسيطر عليه القوى الإسلامية. فكل هذا البحث عن الشرق أدى إلى اكتشاف أمريكا أو العالم الجديد.

فالعالم الغربي الجديد قام أولاً على الإصلاحات الدينية، ثم الكشوفات الجغرافية وبعدها على تأسيس الدولة الوطنية الحديثة كبريطانيا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا... ثم الحركة الاستعمارية للتوسع الجغرافي خارج أوروبا.

وهذا الاهتمام بالحديث بالشرق اختلف عن الاهتمام القديم، حيث كلما أراد الغرب الاحتكاك بالشرق تحرك عسكريا باعتبار القوة العسكرية هي التي تحقق له ما يريد في الشرق.

أما الآن فتغيرت الأساليب وإن بقيت الأهداف متقاربة إلى حد ما. فالأسلوب الجديد يتمثل في محاولة الاحتواء هذا الشرق باعتباره مصدر القلق والتوتر الحضاري، وهو أصعب بكثير لأنه يحتاج إلى أسلحة من نوع آخر خاصة وأن المسلك العسكري أثبت فشله في العالم العربي.

ولنأخذ على سبيل المثال القدس، فقد تداول على حكمها المسلمون والصليبيون، ولم تستقر في حكم واحد، وكذلك حروب التحرر في البلاد المستعمرة. فالتجربة نضجت كثيرا، كما فرضت حركة النهضة الاهتمام بالعقل وعقلنة الظواهر وسلوكات المجتمعات، وممارسات الإنسان.

فالغرب يهتم بالشرق حضاريا لكن ليس بعقلية الأكاديمي الصارم والباحث عن الحقيقة ما هما كانت، بل بدراسة الشرق كما يرد له أن يكون وليس كما كان. هذا الاختلاف جوهرى.

الغرب استحضّر الشرق في مخيلته من خلال ثقافة وموروث على اعتبار كما قلت في البداية أنه همجي وبدائي. وزيادة على ذلك هناك نظرة أخرى، وهي أنه يراد أن يكون على صورة غربي ولكن مستهجن إن صح التعبير.

- هناك توجه لدراسة الإنسان الشرقي أو الحضارة الشرقية كما هي موجودة في النصوص. فالمستشرقون يتعاملون مع النصوص والكتب أي الموروث والتراث الذي أنتجه العقل الشرقي لكن بمنهجية غريبة، وهذا ما ينعكس على النتائج التي يتوصلون إليها.

وهذه النظرة أو المنهجية هي التي حولت الإستشراق في البداية إلى أداة من أدوات الحركة الاستعمارية. هنا يكمن المشكل. ولا نعم طبعاً على كل المستشرقين. وإنما المنهجية المتبعة والأهداف المسطرة هي التي أدت في النهاية إلى وضع المستشرق أو إنتاجه في خدمة أهداف الاستعمار.

- كيف يمكن أن نقول أن هذه الحركة الاستشراقية في الغرب شكلت إلى حد بعيد منطلقاً معرفياً تأثرنا به في بداية نهضتنا؟ كيف يمكن أن نربط الاستشراق كأداة استعمارية وكجال معرفي تأثرنا به في دراستنا وفي معرفة ذواتنا؟

- هناك إشكالية مهمة في دراسة تاريخ الاستشراق، هل هو مرتبط بالجامعة أو المؤسسة الأكاديمية أم أنه نشأ خارجها؟ وهل كل ما أنتجه المستشرقون تراثاً معرفياً يمكن الاعتماد عليه كمرجعية في دراسة الشرق؟

هناك آراء مختلفة حول هذه الإشكالية، ولكل رأي أدلته وحججه. فالذين درسوا على المستشرقين لا يشككون في ذلك أبدا. ويغترفون منه دون حرج وبدون تمحيص ومراجعة.

وظهر قسم اللغة العربية في فرنسا حوالي سنة 1539 في كوليچ دو فرانس ثم في هولندا وبعدها في بريطانيا في جامعة أكسفورد سنة 1638. وكان منطلقها ديني ثم معرفي. واهتمت هذه الأقسام بدراسة اللغة العربية والتراث الإسلامي. لكن الاستشراق لم يعترف به كعلم مستقل بنفسه إلا فيما بعد.

وهذا المصطلح ظهر أول مرة في مجلة ماغزين لتيرير ولم تعترف به الأكاديمية الفرنسية إلا في سنة 1838. وتأسست جمعية المنظمة الدولية للمستشرقين وعقدت مؤتمرها الأول في سنة 1873 في باريس.

وأقيم مؤتمرها الأخير في 1973 في العاصمة الفرنسية وأعلن فيه عن نهاية أو موت مصطلح الاستشراق وباستبدال اسم جمعية المستشرقين بالمؤتمر الدولي للعلوم الإنسانية حول آسيا وشمال إفريقيا وذلك لإعطاء لمسة أكاديمية لأعمال المستشرق. وظهر بعد ذلك مصطلح الإسلاميات.

وهذا التحول جاء نتيجة تسلسل دراسات نقدية للاستشراق وربطه بالحركة الاستعمارية. إنه استحياء من الاستشراق بحيث أن الكثير منهم يقول يتخوف ومن كلمة مستشرق ويفضل أن يصف نفسه بالمستعرب.¹

ولعل من أهم الانتقادات الموجهة له جاءت من الباحث المصري أنور عبد الملك في مقال نشره في مجلة ديوجين عنوانه: "أزمة الاستشراق"، والباحث الفلسطيني ادوارد سعيد في كتابه: "الاستشراق"، دون أن ننسى أدبيات حركة النهضة والإصلاح التي عاجلت مسألة الاستشراق بمقاربة نقدية ومتحاملة أحيانا.

قبل أن نصل إلى هذا التحول والإعلان عن موت الاستشراق، نرجع إلى تاريخ الاستشراق، فالمستشرق كان يتميز بعقلية الاستعلاء في دراستهم لتراث العربي.

- قليل من المستشرقين من يتحدث عن الحضارة الإسلامية، فهم يتحدثون عن التراث والثقافة العربية وعقلية المشرق وينكرون إسهامات حقيقية للمسلمين في الحضارة الإنسانية.

فالعقلية الشرقية في تصورهم تبقى مرتبطة بالخرافات والعاطفة والسحر والشعوذة وغيرها من الأوصاف الدينية.

¹المستشرق الفرنسي جاك برك على سبيل المثال يرفض هذه التسمية، ويصر على كلمات أخرى كالمستعرب، أو مؤرخ أو عالم انثروبولوجي، عالم اجتماع.... أنظر كتابه: Jacques Berque. Arabies, ed Stock, 1978, p 186-187.

في خضم هذا النقاش، سوف أقرأ لك ما قاله محمد أركون المهتم بالدراسات الإسلامية عن هذه العقلية الغربية: "إني أحد الباحثين المسلمين المعتنقين للمنهج العلمي والنقد الراديكالي للظاهرة الدينية إلا أنهم يستمرون في النظر إلي وكأنني مسلم تقليدي... والمثقف الموصوف بالمسلم يشار إليه دائماً بضمير الغائب: إنه الأجنبي المزج الذي لا يمكن تمثله أو هضمه في المجتمعات الأوروبية لأنه يستعصي على كل تحديث أو حداثة، فكيف له إذن أن يلعب الغرور في رأسه ويتنطح ليس فقط لدراسة العقل الغربي وإنما لنقده أيضاً؟"¹ هذه العقلية الغربية تقول انه لا يمكن لأي إنسان أن يدرس الشرق بطريقة علمية إلا إذا العقل الغربي. كيف تعلق على هذه المقولة؟

- إذا وصل محمد أركون إلى هذه القناعة وهو باحث منغمس في العلوم الاجتماعية وطبقها بحذافيرها في كل دراساته تحت لواء الإسلاميات التطبيقية وفي رحاب مشروعه نقد العقل الإسلامي أو نقد العقل الديني، فماذا أزيد عن هذه العقلية الغربية الاستعلائية.

فصير الباحث المسلم وإن كان خريج الجامعة الغربية، ومنغمس في الحياة الغربية أو أستاذ في أكبر جامعاتها كما هو حال أركون الذي يدرس في جامعة السوربون وفي العديد من الجامعات الأوروبية والأمريكية، ورئيس تحرير مجلة أرابيكا (Arabica) وهي من أكبر المجلات الإستشراقية.

¹ محمد أركون. الإسلام، أوروبا، الغرب. رهانات المعنى وإرادات الهيمنة. دار الساقى، بيروت، 2001، ط2، ص45.

ورغم كل ذلك، لم ينل من زملائه المستشرقين كل القبول لسبب واحد وهو أنه عربي مسلم. فالتهميش - إن صح التعبير وصدقه الواقع- ليس سببه عدم تمكن أركان من العلوم الاجتماعية وتطبيقاته على التراث الإسلامي، بل هو يتقنها ويستعملها بجدارة.

إنما هذا الرفض مصدره أن هذا العربي استطاع أن يفهم الغرب ويفك رموزه ويتجاوزهم أحيانا في استعمال المنهج الغربي على تراثه. إنها معركة سياسية وأيديولوجية بعيدة عن ميدان العلم والمعرفة.

وأساءل هنا معك، بعد هذه القناعة الأركونية، هل الخلل يكمن في المنهج أم فقط في سلوك ومعاملات المستشرقين المعبرة عن طبيعة البشرية الضعيفة؟

إن الغرب انتصر في معركة العلم منذ عصر النهضة ووجد نفسه وحيدا بلا منافس كبير في قيادة البشرية.

وحتى الحضارة الكنفوشيسية وفي اليابان بالخصوص كانت في نهاية القرن التاسع عشر تعيش في بداية يقظتها، وتبحث عن التطور من خلال التعلم على الغرب العلوم الحديثة، وليس في نيتها دخول في صراع معه، وهكذا التحقت بالركب فيما بعد.

في هذا الإطار، تطرح قضية جوهرية. كيف ترى مستقبل علاقتنا مع الغرب؟

-تحدثنا عن الخلفيات والرواسب التاريخية نحن في أمس الحاجة لدراستها والاستفادة منها وتجاوز عن بعضها لننتقل نحو المستقبل. وإذا كان الاستشراق في ميدان البحث الأكاديمي إلا أنه استطاع أن يؤثر في المخيلة الشعبية الغربية لمدة طويلة.

ولاشك أن في الأفق صراعات بين الشرق والغرب، لكن بفضل الحوار سنقصد من حدة الصراع، ونمتص الصدام بين الطرفين. ولا شك أن وسائل التواصل المعاصرة ستلعب في تغيير النظرة بين العالمين الإسلامي والغربي.

وقد بينت لنا أحداث قريبة جدا في فلسطين على سبيل المقال تجاوب العديد من المنظمات والشخصيات البارزة في المجتمعات الغربية تتجاوب بصدق مع هذه القضية وهي أحيانا على حساب أرواحها، كالمناضلة الأمريكية التي دستها دبابة إسرائيلية. ونسمع من حين إلى آخر عن بواخر أوروبية وأمريكية تخترق الحصار الإسرائيلي على غزة... الخ.

يجب أن نضع في الحسبان هذه المواقف والأفعال، ونستثمرها، لعلها تكون البذرة الأولى لتغيير الذهنيات وكسب المعركة في ميدان الحضارة وطريق النهضة.

﴿نظرات في الاستشراق والاستغراب﴾¹

يعتقد الدكتور مولود عويمر، أستاذ تاريخ الأفكار بجامعة الجزائر 2، أن علم الاستغراب بدأ مع حسن حنفي، لكن هذا الأخير تركه وانشغل بقضايا فلسفية أخرى، معتبرا أن تتبع الفكر الغربي يعتبر مسألة ملحة. وقال الدكتور عويمر، في حوار مع "الخبر"، إنه حان الوقت للانتقال من مرحلة الذاكرة إلى مرحلة التاريخ.

هل تمكن علم الاستغراب من مواجهة الاستشراق الغربي؟

- أنا لا أنطلق من مقارنة المواجهة، على الأقل في الطرف الحالي. إن ما يشغلني في كتابي الأخير "مقاربات في الاستشراق والاستغراب" هو محاولة فهم العالم الغربي كما هو وليس كما هو متخيل، وذلك بالالتزام بروح هادئة لاستنطاق الأسس التي قام عليها الفكر الغربي، ودراسة العوامل التي ساعدت الاستشراق على النجاح في واحدة من أكبر المغامرات العلمية في تاريخ الفكر الإنساني.

¹الخبر، 1 جوان 2013. حاوره حميد عبد القادر.

وكل مفكر مهموم بسؤال النهضة مدعو إلى التدبر في كل التجارب الناجحة في التاريخ القديم والراهن ليستلهم منها العبر، ويؤسس على ضوء قراءتها تصورا شموليا في الإقلاع الحضاري، وتحديد الوسائل المناسبة لتحقيق مستقبل أفضل.

أقول أن التنظير لعلم الاستغراب جاء متأخرا مع صدور كتاب المفكر المصري حسن حنفي بعنوان " مقدمة في علم الاستغراب " غير أن الدكتور حنفي نفسه انهمك بعد ذلك في قضايا فكرية وفلسفية أخرى.

وهي محاولة فكرية عقب انتقادات اللاذعة التي وجهها للمستشرقين عدد من المفكرين العرب المعاصرين أمثال مالك بن نبي وأتور عبد الملك وادوارد سعيد وهشام جعيط... وبرز مقولة نهاية الاستشراق واستبداله بمصطلحات أخرى كالاستغراب للقطيعة مع الماضي.

أما عمليا فقد بدأت إرهابات الاستغراب في الثلث الأول من القرن التاسع عشر مع رواد النهضة في العالم العربي أمثال المجدد الجزائري محمود ابن العنابي صاحب كتاب "السعي المحمود في نظام الجنود"، والعالم المصري رفاعة رافع الطهطاوي مؤلف كتاب " تخلص الإبريز في تلخيص باريز " ومؤسس مدرسة الألسن (اللغات) في القاهرة.

والحق أن هؤلاء الرواد كانوا يتميزون بالوعي العميق والفهم الدقيق لسنن الكون ويتحلون بالصدق والإخلاص في العمل، ولم يتوجسوا خيفة من غزو الحضارة الغربية، بل نادوا إلى الاستفادة منها فيما لا يتعارض مع المقومات الذاتية للشعوب العربية والإسلامية.

غير أن البيئة التي صنعها التخلف والاستعمار والاستبداد خذلتهم، وهشت أفكارهم الرائدة مثل هذه الفكرة التي قالها الشيخ ابن باديس رحمه الله وهي تجسد التفتح في أجمل صورته: «لو حررنا من حرية تعلم اللغة الفرنسية التي هي سبيلنا إلى آداب الغرب وعلومه وفنونه وفهمه من جميع جهاته، كما حررنا من حرية تعلم لغتنا، لوقفنا إزاء ذلك الحرمان لو كان، كوقفنا إزاء هذا الحرمان».

فالخلل ليس في تعليم اللغات الأخرى، وإنما الخلل يكمن في الإنكار للغة الأصلية وتمهيشها في المجالات الحيوية.

لقد انطلقت حركة الترجمة في العالم العربي بهمة عالية في بداية القرن العشرين للتعرف على العالم الغربي المهين منذ عصر النهضة، وعزبت نقائس الفكر الغربي الحديث في وقت قياسي.

ولا بد أن أشيد هنا بجهود شيخ المترجمين العرب بلا منازع الفلسطيني عادل زعير الذي ترجم حوالي 40 كتابا لرواد الفكر الغربي أمثال فولتير وجان جاك روسو ومونتسكيو وارنست رينان وغوستاف لوبون وأاناتول فرانس ولويس-إيميلي سيديو وإميل درمنغهام وإميل لودفيغ... الخ.

ثم تباطأت هذه الديناميكية في الستينات، وتعرض زعير شخصيا لاتهامات باطلة اتهمته بدعم الغزو الثقافي والترويج للفكر الغربي في العالم العربي.

لماذا توقفت هذه الدراسات، أقصد علم الاستغراب عند محاولات حسن حنفي؟

من الناحية الشكلية لم تتوقف الدراسات في مجال الاستغراب، بل فتحت مراكز لدراسة العالم الغربي في بعض الجامعات العربية. وأعرف أن مؤسسة الملك فيصل العالمية أسست منذ سنوات شعبة للدراسات الغربية.

وقد اتصل بي المشرف عليها منذ سنتين للاستشارة. إن المشكلة تكمن في تراجع البحث العلمي الرصين في هذا المجال المعرفي لأسباب عديدة أذكر منها: تشوش في الرؤية، وخلل في المنهج، وقلة الصبر عند المستغرب، وتشردم الباحثين، ولامبالاة أهل القرار والمال.

أقف معك عند نقطة المنهج والرؤية، فالصورة الشائعة اللاصقة بالمهتمين بالفكر الغربي هو التباهي بحفظ الأسماء اللامعة ومعرفة العناوين الرنانة والتشديق بالمصطلحات الجديدة. لكن السؤال الذي يطرح نفسه: هل نملك فكرا هادئا يحفر في الذهنية الغربية؟

فكر هادئ يتوغل في روح الحضارة الغربية التي حافظت عليها القرى والمدن العميقة بحرفيها وفلاحها ورعاتها الذين يقرؤون روائع الأدب العالمي تحت ظلال الأشجار، ويطالعون المجلات التي تعنى بعالم الحيوان والنبات والصيد، ويحفظون مفردات القواميس الجديدة حتى لا يتأخروا عن الركب الحضاري، وهم المحصنون للغة السلمية والثقافات الأصيلة، والمحافظون على العرف والتقاليد!

إن الحضارة الغربية التي ندعي أننا نعرفها لا تصنع في العواصم الغربية الكبرى، فما تراه أعيننا من مشاهد هي تعبير عن التطور المادي الذي أنتجته روح هذه الحضارة التي تزرع

الأمل وتعشق الجمال، تمجد الانضباط وتعبد العمل الجاد، وتكرس العدل والحق فتقدر المجتهد وتعاقب الكسول، وتدعم سلطة القانون الذي هو فوق الجميع.

فالمنهج الصحيح هو الذي يستنبط الأفكار من التراث والواقع، ويجسدها في حياة الناس فتتحوّل إلى قيم تحي الشعوب وترفع المجتمعات درجات.

إن الاستشراق نجح في مهمته لأنه تخلّص من كل معوّقات الاغتراب كعائق تقاليد وعادات الآخر، فقام المستشرقون برحلات كثيرة إلى الشرق، وعاشوا في الأحياء القديمة واحتكوا بالناس، أو عائق اللغة فتعلم المستشرقون العربية، وتدوّقوها وتفاخروا بإتقانها وتراسلوا بها فيما بينهم، وفضلها بعضهم على لغته الأصلية في مواقف خاصة، فهذا المستشرق الفرنسي لويس ماسنيون كان يصلي ويدعو باللغة العربية في أوقات الشدة لأنه كان يشعر أنه أقرب إلى الله وهو يناجيه بالعربية.

هل علم الاستغراب هو الوحيد القادر على مواجهة حرب الذاكرة؟

-لا شك أن علم الاستغراب يساهم كثيرا في مواجهة حرب الذاكرة التي نعاني منها نحن في الجزائر في مجال التاريخ بالخصوص.

لقد أشرفنا مع صديقي الدكتور علاوة عمارة على كشف الرسائل الأكاديمية في التاريخ المنجزة في رحاب الجامعة الجزائرية خلال نصف قرن، فاكشفنا أن ما كتبه المؤرخون الجزائريون عن العالم الغربي ضئيل جدا في كل المراحل التاريخية.

الجامعة الجزائرية نجحت في تكوين مؤرخين جزائريين مختصين في تاريخ الجزائر والمغرب العربي والعالم الإسلامي والأقطار الإفريقية إلا أنها لم تصل بعد إلى تكوين خبير جزائري في التاريخ الفرنسي أو الألماني أو الأمريكي...في حين أعرف مؤرخين أوروبيين وأمريكيين تخصصوا في تاريخنا القديم والحديث.

وأستحضر الآن مؤرخا أمريكيا مختصا في الحركة الوطنية الجزائرية عمل مستشارا للرئيس جيمي كارتر. وزارتنا في الجامعة السنة الماضية باحثة يابانية تحضّر رسالة الدكتوراه عن تاريخ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

فلا بد أن ننتقل من مرحلة الذاكرة إلى مرحلة التأريخ لكي لا نهزم في معركة مصيرية لا حجة فيها للضعيف.

ما هي الطريقة المثلى لمواجهة الغرب اليوم حسب اعتقادكم؟

إن الطريقة المثلى لمواجهة الغرب في اعتقادي هي الاستفادة من كل عناصر قوته باعتبار ما أنتجه العقل الغربي في مجالات نافعة كثيرة هو نتيجة تراكم جهود الإنسان في التاريخ ساهمت فيه كل الحضارات بدون استثناء.

والمعركة انتقلت اليوم إلى ميدان إنتاج المعرفة والإسهام في تجسيد القيم الإنسانية على أرض الواقع تحفظ كرامة الإنسان ولا تبخس حقوقه المختلفة.

وسنة الله في الكون تأتي أن ينتصر الجهل على العلم، أو القذارة على النظافة، أو الباطل على الحق، أو القبح على الجمال، أو الرذاعة على الكفاءة. فبناء الغد المشرق يبدأ بالارتقاء

بالإنسان العربي إلى مستوى التحديات الراهنة، وإحياء مقوماته الحضارية الغائبة، وتفعيلها بالاجتهاد الفردي والجماعي للانتصار على التخلف في أشكاله المتعددة.

هل ما تزال العقلية الاستشراقية سارية في الفكر الغربي؟

من المؤكد أن العقلية الاستشراقية أو "نزعة الاستعلاء" كما سميتها في كتابي "الإسلام والغرب بين رواسب التاريخ وتحديات المستقبل" الصادر في عام 2008 مازالت راسخة في الذهنية الغربية، وهي مرافقة دائمة للإنسان الغربي في تعامله مع الآخر خاصة حينما يكون هذا الأخير ضعيفا.

وساهم الاستشراق في تكريس الصورة النمطية للإنسان الشرقي المتخيل في شكل الهمجي والمتخلف، وتفننت العديد من المؤسسات الإعلامية والسينمائية في تسويد صورته، وتقبيح طبائعه. واستخدمت الحركة الاستعمارية والتنصيرية الرصيد الاستشراقي لتفعيل نشاطها، وتبرير أعمالها الهدامة بذريعة تمدن المجتمعات العربية وتحرير العقل العربي!

غير أن تطوّر المنهج العلمي، وتسيّد المقاربة النقدية، وانتشار وسائل الاتصال المختلفة، خفف من تأثير العقلية الاستعلائية الاستشراقية على ذهنيات الشعوب الغربية التي تحررت من قيود كثيرة بفضل نضال دائم ويقظ، وأصبحت تميل نحو التعايش مع الآخر الذي لم يعد مجهولا عندها أو غريبا عنها في عصر العولمة.

الخطاب الإسلامي والبحث عن إعادة تشكيل العقل الغربي¹

يرى الباحث الدكتور مولود عويمر بأن المسلمين يقفون اليوم موقف المدافع المتأخر عن مبادئه وأفكاره، بدل المهاجم المساهم في النقاش الفكري الذي يسود العالم الآن. فعلى الرغم من أن الإسلام شامل وكامل إلا أن الخطاب الإسلامي المعاصر - يضيف الدكتور عويمر - "ينتظر ما تقذفه المخابر الفكرية الغربية من أفكار والتي قد لا تتناسب مع معطياتنا وطموحاتنا، بل تخضع لمنظومة وأنفاق فكرية مغايرة".

وفي هذا الصدد يؤكد محدثنا على ضرورة صنع مخابر للخطاب الإسلامي تناقش فيها أفكاره، ويحلل من خلالها الموروث الثقافي الغربي كذلك "الذي يجب أن يعاد طرحه بتصورنا". ويقدم أستاذ العلوم الإنسانية بالمعهد الأوروبي بباريس - سابقا - طرحا في هذا المجال، وهو ضرورة العمل على إعادة تشكيل العقل الغربي تجاه العالم الإسلامي من خلال المساهمة في إثراء الثقافة الغربية نفسها، فالعالم -حسبه- خسر الكثير بانحطاط المسلمين وتراجع حضارتهم.

¹ حوار سجله معي الإعلامي علي قاسيمية من الإذاعة الجزائرية يوم 25 مارس 2009 على هامش الملتقى الدولي حول "التسامح في الإسلام" الذي نظمه المجلس الإسلامي الأعلى.

وفي لقاء جمعنا به، أبدى صاحب كتاب "الإسلام والغرب بين رواسب التاريخ وتحديات المستقبل" تفاؤلاً من مستقبل المسلمين في الغرب مستشهداً بالحضور القوي لأفكار ومظاهر الإسلام التي أصبحت جزءاً مهماً من النسيج الاجتماعي الغربي، فالعزم الآن معقود - كما يرى- على الجيل الجديد الذي استطاع أن يفرض نفسه في المجتمع الغربي علمياً وثقافياً واقتصادياً.

-الأستاذ الدكتور مولود عوهم، في البداية ماذا يعني التسامح كقيمة خلقية تشترك فيها الأمم والثقافات؟

- بسم الله الرحمن الرحيم. مفهوم التسامح كقيمة خلقية يعني احترام موقف أو رأي أو عمل الآخر مهما اختلفت معه، وإذا كان الشيء يعرف بنقيضه، فالتسامح هو نقيض التعصب.

والتسامح مفهوم يحمل مفردات ودلالات ثانوية، هي: التفتح، الاعتدال، الوسطية، وقبول الآخر مهما اختلفنا معه. وانطلاقاً من هذا المفهوم الذي يشكل قيمة أخلاقية تميل إليها كل الشعوب باختلاف مذاهبها ومشاربها ولغاتها ومناهجها، فالشعوب بطبيعتها تميل للهدوء والسكون، سكون التاريخ ورفض الصراعات والحروب؛ غير أن المصالح الضيقة والأغراض الأيديولوجية تتجه بهذه الشعوب نحو الصراع لتحقيق أهداف قريبة.

وبمجرد تحقيق هذه الأهداف يعود ذلك الهدوء والميل الداخلي للتسامح، والتقرب من الآخر لمعرفته وتبادل الأفكار والمعلومات عنه، إذ لا يمكن تجاوزه أو العيش دونه.

وهكذا فالتسامح قيمة تغيب ثم تعود لتحيي من جديد في الأفق مهما كانت الظروف والحروب لأن الإنسان ميال بطبعه للتسامح مع أخيه الإنسان.

ما هو موقع مفهوم التسامح في الخطاب الإسلامي المعاصر؟

- اهتم الفكر الإسلامي المعاصر بثنائيات كثيرة من بينها طبيعة علاقتنا مع الآخر، أو بمعنى ماذا عند الغرب من قيم تقترب أو تتباعد مع ما يطرحه الخطاب الإسلامي أو الموروث الحضاري الإسلامي؟ وبطبيعة الحال، فإن التصورات والتوجهات كثيرة ومختلفة بين المسلمين وغيرهم.

وقد يعود في بعض الأحيان إلى سوء تفاهم بين الطرفين، أو ينبج عن عدم معرفة الآخر، أو بسبب صورة مشوهة ينقلها طرف عن الآخر. كل هذا يؤدي إلى ظهور تيارات تتبنى التعصب، وليس بالضرورة أن يكون ضد من هو خارج الدائرة.

وفي بعض الأحيان ينشب الخرف بين المسلمين أنفسهم، وهو ما نشاهده من اختلافات بين التيارات الفكرية والمذهبية التي تشكل الفكر الإسلامي.

فسوء التفاهم هو الذي يتحول من نقاش علمي ثقافي وفكري إلى سلوك يعبر عن الرفض والإقصاء للطرف الآخر الذي يمكن أن يتبادل معه قواسم مشتركة من دين وعقيدة كالخلاف بين السنة والشيعة الذي أثار مؤخرًا قضايا كثيرة يمكن أن نتجاوزها بالتسامح.

إن غياب الرغبة الحقيقية والصادقة في فهم الآخر والتقرب منه، هو الذي ينبج هذه الهوة، وليست العقائد أو المذاهب نفسها، والتي هي عبارة عن أفكار يمكن أن تقبل أو ترفض.

لكن طريقة توظيف تلك الأفكار والعقائد هي التي تصنع ذلك الاختلاف أو الصراع أحيانا.

-انطلاقا من الخطاب الإسلامي المعاصر، برأيكم لماذا نقوم نحن المسلمين بدور المهاجم بدل المدافع عن مبادئ الإسلام السمحة؟

- خطابنا الإسلامي، ولا أقول كل الخطاب الإسلامي، ينتظر المخبر الفكري الغربي ينتكر الأفكار ويناقشها ثم يقدمها كمصطلحات ومفاهيم جديدة للعالم. عندما تقذف المخابر الغربية بتلك المصطلحات والمفاهيم التي تخضع لمنظومة فكرية معينة ولأنساق معينة إلى الساحة الفكرية والثقافية والإعلامية، تبدأ النخبة عندنا في مناقشتها حينذاك فقط.

فهي تبدأ في استقطاب تلك المصطلحات والأفكار الجديدة، فمن المفكرين من يجد لها مقابلا في التراث الإسلامي القديم، ومنهم من يرفضها جملة وتفصيلا؛ لأنها صنعت وأنتجت في غير مخابر المسلمين...

غير أن المطلوب من الخطاب الإسلامي المعاصر اليوم هو أن يصنع لنفسه مخابر يناقش من خلالها الأفكار القديمة ويطرح أفكارا جديدة. كما يحاول القيام بنفس العملية التي يقوم بها الغرب في طرح أفكاره، سواء تعلق الأمر بتحليل التراث الإسلامي أو تحليل الموروث الثقافي الغربي.

نحن أيضا في حاجة إلى دراسة التراث الغربي دراسة تحليلية تشريحية علمية ونؤسس لعلم الاستغراب. ويكون الطرح الجديد للفكر الغربي بتصورنا نحن. وأنا متأكد أننا سنساهم في إعادة تشكيل العقل الغربي في نظرتة إلى العالم الإسلامي.

إنه يجب أن يتكوّن لدينا طموح رفع حضارتنا إلى مستوى الإنسانية لكي تسود كما يفكر الإنسان الغربي الذي يرى أن حضارته إنسانية وليست مقتصرة على العالم الغربي، ويسعى ما استطاع من قوة لنشرها وتمكينها كجزء من تراث الإنسانية لما تحمله من قيم ومبادئ وأخلاق، ونطرحها في طرح وثوب جديد تقدمها للغرب.

وعند الحديث عن الإسهام، فنحن لا نقدم إسهامات في القضايا الأساسية التي يناقشها العالم اليوم مثل التسامح التي لا يمكن التعامل معها كقيمة منفصلة عن القيم الأخرى. يجب الخوض في مسائل أوسع مثل مسألة حقوق الإنسان التي تشكل موضوع أساسي الآن في أبحاث ونقاشات على مستوى هيئات عالمية كمنظمة الأمم المتحدة وعلى مستوى الجامعات ومراكز البحوث...

ونحن نملك في مجال حقوق الإنسان موروثا دينيا وثقافيا وحضاريا، وللإسلام تجربة كبيرة في حقوق الإنسان خاصة مع من لا يدينون بالدين الإسلامي، ومن هنا وجب علينا الاستفادة من هذه التجارب، ونستسيغ منها موضوعا للدراسة بأسلوب جديد تقدمه للغير.

الفكر الإسلامي يجب أن يتحوّل من مدافع متأخر إلى مساهم فعال في النقاش الفكري الذي يسود الآن في العالم حول قضايا تهمننا نحن المسلمين بالدرجة الأولى.

فالمطلوب إذن هو أن نشارك الإنسانية جمعاء ما جاء به الإسلام من قيم، فعندما كان المسلمون يملكون تصورا إنسانيا فتحوا العالم واستطاعوا أن يؤثروا في مجتمعات وحضارات عديدة.

بيد أن المسلمين تأخروا عندما تمسكوا برقعة جغرافية محددة وفضاءات فكرية منغلقة أضروا بها أنفسهم وغيرهم. ويحضرني في هذا المقام العالم الهندي أبا الحسن الندوي الذي تحدث عن ذلك في كتابه "ماذا خسر العالم بالخطا المسلمين". حقا، لقد خسر العالم الكثير من تأخر المسلمين وتقوقعهم.

نعم، أحيانا هناك تراجع يفرضه الغرب بقوة، ولكن نحن أيضا نتخوف من الحوار مع الآخر كأننا لا نريد الإثراء والاختلاف، فكثيرا ما تنظم مراكزنا ومؤسساتنا الثقافية ندوات وملتقيات تكون مغلقة بيننا بحيث لا نسمع للرأي الآخر ولا للفكر الآخر ولو من نفس الدين والعقيدة.

-الإسلام والغرب بين رواسب التاريخ وتحديات المستقبل" عنوان لكتاب صدر لكم مؤخرا. كيف وجدتم العلاقة بين الإسلام والغرب؟

- طرحت من خلال هذا الكتاب مجموعة إشكاليات، من بينها: كيف يمكن للمسلمين والغرب أن يتجاوزوا الرواسب التاريخية المليئة بالخلافات والصراعات من أجل المستقبل؟ كما ناقشت إشكالية أخرى تتعلق بالتنوع الثقافي في الغرب الذي يعيش اليوم هوية مسيحية ويهودية وإسلامية وغيرها من الديانات، وقدرة الغربيين على التفاعل مع هذه الهوية الجديدة.

وعلاقة الإسلام والغرب قديمة جدا، عرفت صراعات كما عرفت حوارات وتعايش وتبادل عبر التاريخ.

وفي واقعنا اليوم هناك أحداث كثيرة وقعت في العالم الإسلامي ساهمت في تشكيل تصور عدائي لدى النخبة ولا أقول عند الشعوب الغربية تجاه العالم الإسلامي الذي يشهد تحولا في مسار تجربته من إسلام يقتصر على دعوة ونشاط ثقافي إلى تشكل قوى وحركات وأحزاب سياسية تطالب بالسلطة، ومنها من وصلت إلى سدة الحكم في إيران والسودان وأفغانستان وفلسطين وتركيا.

إن هذه الظاهرة بقيت تثير مخاوف الغرب خصوصا عندما يرى مظاهر وأفكار الإسلام تزداد انتشارا داخل العالم الغربي. فقد أصبح للمسلمين الآن حضور على كل المستويات وفي كل الدول الغربية.

فهذا الأمر لا شك يدفع الغرب إلى مراجعة حساباته مع الإسلام الذي -كما ذكرت- يشكل جزء من النسيج الاجتماعي الغربي بوجود عدد كبير من المسلمين الأوروبيين.

كل هذا جعل أهل القرار في الغرب يفكرون في هذا التحدي الجديد الذي يتطلب حسن التعامل معه، والتفاهم مع مواطنيهم الذين لهم كل الحق في اختيار شعائرهم وممارستها بكل حرية.

-كيف يتصور الدكتور مولود عويمر علاقة الإسلام والمسلمين بالغرب مستقبلا؟

حقيقة، أنا متفائل. لا أقول كثيرا، ولكن متفائل بمستقبل الوجود الإسلامي في الغرب لأن المسلمين اكتسبوا مقومات من خلال تجربتهم هناك، كما أدركوا أن لا مكان ولا مستقبل لهم إلا بالمساهمة والإسهام في هذا المجتمع الغربي، وذلك طبعا في إطار الحفاظ على مقوماتهم وعلى موروثهم الثقافي والحضاري.

فعندما نشاهد اليوم مراكز ومؤسسات إسلامية نوعية منتشرة في الغرب، وانتشار الكتاب الإسلامي ومشاهد كثيرة أخرى، نستبشر بتأثير الثقافة الإسلامية على النسيج الغربي بشكل هادف ومستمر.

فالعديد من مظاهرنا الاجتماعية انتقلت إلى الغرب ولم يجد الغربيون حرجا في تقبلها، كما نجد أيضا كلمات عربية دخلت القاموس الانجليزي والقاموس الفرنسي لأن الجيل الجديد استطاع أن يعبر عن وجوده علميا وثقافيا واقتصاديا.

نعم، هي بداية، ولكنها بداية صحيحة لهؤلاء المسلمين في الغرب بسلوكهم وتفوقهم واحتكاكهم وإضافاتهم النوعية للمجتمع الغربي الذي يؤمن بشيء واحد هو قيمة المنفعة، وكأنهم يطبقون الحديث الشريف: «خير الناس أنفعهم للناس».

﴿النخبة الجزائرية فرضت منطقتها في المجتمع الغربي﴾¹

يعتقد الدكتور مولود عويمر، بأن تواجد المسلمين اليوم في فرنسا وكامل المنطقة الأوربية، بمن فيهم الجالية الجزائرية، بات نوعيا نتيجة اعتبارات شتى أهمها حضورهم في أعرق مراكز البحوث الثقافية والعلمية وأكبر المدارس والجامعات، عكس تمثيل دول أوربا الشرقية كرومانيا والمجر، واصفا إياه بـ"الإنتكاسي" الذي أرق أوروبا اقتصاديا وأحدث فيها خللا اجتماعيا.

قال الدكتور مولود عويمر، أستاذ تاريخ الأفكار بجامعة الجزائر، في حديث جمعه بـ"الفجر"، أنه خلال السنوات الأخيرة عرفت أوربا هجرة من نوع آخر عكس الهجرة التي ميزتها مع بداية القرن الـ20 والحرب العالمية الأولى، أين اقتصر على العمال وتمثلها فئة النخبة في كافة المجالات سواء العلمية أو الاقتصادية أو الثقافية والأدبية.

وأضاف بأن النخبة الجزائرية والمغاربية المسلمة استطاعت فرض منطقتها في المجتمع الغربي وقدمت إضافة مهمة من خلال تواجدها في أكبر الجامعات ومراكز البحوث والمعاهد الإعلامية لاسيما في فرنسا وبلجيكا.

¹ جريدة الفجر، 8 سبتمبر 2013 م. لم أسجل اسم الصحافي.

كما أسهمت في تطوير هذا المجتمع من عدة نواحي بخلاف مهاجري أوروبا الشرقية الذين أضحووا علة على عجلة التطور والتنمية في القارة، وخلقوا مزاحمة كبيرة لهذا المجتمع الغربي المسيحي الكاثوليكي البروتستانتى، في الشغل ومناصب العمل، وكذا الاستفاده من امتيازات الحياة كالتضامن والدعم. وبالتالي - على حدّ قوله - يراهم البعض أكثر خطورة من مهاجري المغرب العربي والجزائريين بصفة خاصة.

وأوضح مولود عويمر أنّ الجالية الجزائرية عرفت كيف تساير التحوّل والتغير الحاصل في أوروبا منذ عدة سنوات رغم مختلف الصعوبات والعوائق بالنظر إلى أنّ المجتمع الغربي كان أكثر انغلاقاً على نفسه من المجتمع الأمريكي والكندي.

والسبب هو تأثير الثقافة القديمة المسيحية القائمة إلى غاية اليوم، بالإضافة إلى الضغوطات الراهنة للعمولة وتحديات المستقبل التي تواجه أوروبا. وفي السياق أكدّ المتحدث عويمر أنّ نجاح الجزائريين والمغاربة في فرض أنفسهم كقوة مثقفة وكطبقة نخبة كشف عن فارق شاسع بينهم وبين الجالية الشرقية لبعض الدول كالمجر، رومانيا، وغيرها.

إنهم قدموا ما لم يقدمه هؤلاء الذين اعتمدوا على ريع الحكومات الأوروبية ومساعدتها، حيث أصبحوا يستنزفون بشكل أو بآخر خيراتها وأحدثوا خللاً اجتماعياً لأنهم بكل بساطة يتمتعون بنفس القوانين التي يتمتع بها الأوروبيون.

منوهاً في الصدد ذاته أنّ بعض الأحزاب المحافظة تخشى دخول أعداد كبيرة من مهاجري دول أوروبا الشرقية نتيجة ما تقدمه من سلبيات دون الإيجابيات.

المحوّر الرابع:
أعلام وتجارب

﴿الشيخ محمد الخضر حسين بين التنوير والتحرير﴾¹

- كان الشيخ محمد الخضر حسين يتقن الفنون الثلاثة: علم البيان، علم المعاني، وعلم البديع. ما رأيك؟

- اعتمد الشيخ الخضر في مشروعه الإصلاحية على الصحافة. وهو لم يدخلها كصحافي بل باعتباره عالما ومصلحا، واستغل هذه "الألة" الجديدة التي ابتكرها الغرب وسيلة يوصل من خلالها أفكاره إلى الشعوب، وإلى المسلمين، ولم يكن يستطيع أن يحقق ذلك من خلال الكتب أو الدرس في المسجد. فخطابه الإصلاحية كان يمر عن طريق قناة ووسيلة أنجح، وهي الصحافة.

عندما كان الشيخ الخضر يكتب المقالة كان يكتبها وحو يحافظ على هويته أي صفته العالم والمفكر ولا يتقمص شخصية الصحافي بدليل أن هذه الصحافة كانت في الحقيقة صحافة علمية. وهو لم يؤسس جريدة وإنما أسس مجلة (السعادة العظمى، الهداية الإسلامية). والمجلة هي عنوان للعلم وكأنها كتاب يحتوي مقالات علمية بشكل مبسط وبأسلوب خاص، وليست مقالات صحفية إخبارية.

¹ حاوره الصحافي بلقاسم محروق بإذاعة الزيبان، بسكرة 27 ديسمبر 2007. وسجلت حوارات مع نفس الصحافي عندما عدت إلى بسكرة في مناسبات أخرى، منها: حوار حول أعلام الإصلاح في منطقة الزيبان، وحوار آخر حول الأديب أحمد رضا حوجو رحمه الله.

- ما لاحظته من خلال أعمال الشيخ محمد الخضر الحسين أنها تنقسم إلى شقين: هناك الجانب الإصلاحى الذى تناول الشريعة، والجانب اللغوى. وربما هذا فى دربه هذا حذو الشيخ محمد عبده. أليس كذلك؟

- فى الحقيقة أن الشيخ الخضر كان ابن زمانه، إذ لا يمكن أن يفصل أى عالم عن زمانه، وفى زمانه ليس هناك فاصل بين الاهتمام باللغة، وبين الاهتمام بالإصلاح، بل اللغة كانت أيضا وسيلة من وسائل الإصلاح.

كانت اللغة العربية مهددة من الداخل قبل الخارج، فلا ننسى أنه فى فترة العشرينات والثلاثينات قامت صحىحات داخل العالم العربى تنادى بالقضاء على اللغة الفصحى وتعميم العامية ونشرها.

وقام جدال وسجال كبير فى هذا الشأن فى الساحة الثقافية العربية، وخاصة بعد أن حاول كمال أتاتورك أن يقضى عليها، ويضع اللغة التركية بالحروف اللاتينية بدل اللغة العثمانية المكتوبة بالحروف العربية.

فإذن مسألة اللغة كانت مطروحة بقوة فى العالم العربى، وهى موضوع اشتغل به المصلحون كغيرها من الموضوعات كالهوية والتربية والتاريخ والقرآن والتفسير. كل هذه المواضيع دخل منها العلماء والمصلحون المسلمين فى بداية النصف الأول من القرن العشرين للاشتغال بالإصلاح، ومحاولة تغيير المجتمع الإسلامى.

فليس هناك فاصل بين هذه الاهتمامات، فالعلم المصلح يهتم باللغة العربية فترة معينة، ثم يشتغل بقضايا اجتماعية وسياسية، ثم يعود إلى اللغة العربية، فلا أرى فاصلا، وإنما فيه

تكامل. بهذه النظرة الشمولية التكاملية ينظر إلى القضايا الأساسية المطروحة على الساحة الفكرية...

وهكذا كانت رسالة المفكر، كلما طرحت قضية شائكة ومهمة في المجتمع، لا بد أن يتصدى لها ويناقشها ويقدم تصوره حول هذه المشكلة، خاصة إذا تراحت الأفكار، وغلبت الأفكار الخاطئة الأفكار الصحيحة.

وهذا هو الدور الذي قام به الشيخ محمد عبده، والشيخ محمد الخضر حسين، والشيخ عبد الحميد بن باديس وغيرهم.

- ما يلاحظه القارئ في تاريخ تلك الحقبة التي كان قد عاش فيها فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين أنه كان مستندا للحركات التحررية في المغرب العربي بصورة أخص، فقد ساعد الجهاد في ليبيا، واتصل بالزعيم الأمير عبد الكريم الخطابي. وربما تلقى منه توجيهات أو نصائح، وحتى أن الشيخ الخضر كتب عن تاريخ الاحتلال في تونس. يبدو لي أن الرجل كان سياسيا أيضا.

- لا أقول أن الشيخ الخضر كان سياسيا، وإنما أقول كان مصلحا سياسيا، أو مفكرا سياسيا، فهو لم يؤسس حزبا، ولم يشارك في الانتخابات، وإنما كان يطرح أفكارا سياسية، ويدافع عن إصلاح السياسة، بل كان أستاذا للسياسة الشرعية في جامعة الأزهر لعدة سنوات.

إن اهتمامه بقضايا التحرر في المغرب العربي سواء بالاحتلال الإيطالي لليبيا، أو حرب الريف في المغرب الأقصى، أو مؤتمر الأفاريستي في تونس، أو الاحتفال بالذكرى المئوية

لاحتلال الجزائر ... ليس اهتماما لذاتها كأحداث عابرة وإنما كمتابع سياسي إذ كانت السياسية جزء من نشاطه، بمعنى أنه يقدم تصورا لهذه القضايا ويساندها.

ولا يساندها فقط بالخطاب، أو الكتابة في الجرائد وتأليف الكتب، وإنما يساندها أيضا بتأسيس الجمعيات المهتمة بقضايا التحرر مثل جمعية الهداية الإسلامية في القاهرة في عام 1922، وجبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية...

كل هذه المؤسسات جعل منها منابر لكل الزعماء السياسيين المغاربة وغيرهم من الزعماء الذين كانوا في مصر ومنهم الحبيب بورقيبة الذي اعتقل لما دخل إلى مصر للتأكد من جنسيته فتدخل الشيخ الخضر لدى السلطة المصرية التي يحظى عندها بالاحترام والتقدير، فأفرج عن بورقيبة وأقام فترة في دار الشيخ الخضر في القاهرة.

كما تواصل مع الأمير عبد الكريم الخطابي لما استقر في مصر. وكان الزعيم الخطابي عضوا في جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية، وهناك نشرات وبيانات لهذه الجمعية وجمعيات تحررية أخرى تحمل إمضاءاته وإمضاءات الزعماء الآخرين مثل محمد البشير الإبراهيمي والفضيل الورتلاني والشاذلي مكي والحبيب بورقيبة ومحي الدين القليبي...الخ.¹

¹ عن النشاط السياسي والاصلاحي للشيخ محمد الخضر حسين، راجع كتابي: العلاقات الثقافية بين الجزائر والمشرق العربي في القرن العشرين. دار الهدى- مؤسسة الإمام عبد الحميد بن باديس، قسنطينة، 2016، ص 30-41.

كان الشيخ محمد الحضر حسين يعتبر دائما النضال من أجل التحرر قضية من القضايا الأساسية في مشروعه الإصلاحي، فالإصلاح ليس فقط إصلاح الأفكار، وإصلاح الأنظمة وإنما كان مرتبطا أيضا بفكرة التحرر.

وكان يستعمل منابر أخرى لتحقيق مشروعه الإصلاحي مثل جمعية الشبان المسلمين التي كان عضوا مؤسسا لها في عام 1927. وأنا قرأت في يوميات الدكتور سعد الله أنه تدرّب فيها على العمل العسكري.

كان الشيخ محمد الحضر حسين ذلك الرجل الفعال في المجتمع، يحمل هموم أمته عبر عمره الطويل، وكان ذلك الرجل الموسوعة علميا، وذلك الرجل الشامل نضاليا.

﴿الشيخ عبد الحميد بن باديس ومشروعه الإصلاحية﴾¹

مجلة السراج ترحب بحضرة البروفيسور مولود عويمر، أستاذ تاريخ الفكر المعاصر بجامعة الجزائر 2. تسعد بالحوار معك لنسلط الأضواء على مسارك العلمي، وتحدث كذلك عن كتاباتك القيمة حول شخصية هذا العدد، وهو العلامة عبد الحميد بن باديس رحمه الله. فشكرا لك على تلبية دعوتنا، ودمت ذخرا للوطن، وللعلم والمعرفة.

بروفيسور مولود عويمر، الناظر في سيرتك العامرة، يرى أنك بذلت جهدا كبيرا في دراسة التاريخ المعاصر وإحياء التراث الفكري الإسلامي والإنساني. فلو تكلمنا عن بداياتك واهتماماتك في هذا المجال؟

لا أستطيع أن أحدّد بالضبط اللحظة الحاسمة التي قررت فيها أن أصبح مؤرخا. كل ما أستطيع أن أقوله لك الآن هو أنني كنت مولعا بقراءة سير العطاء وأنا طفل لا يتجاوز عمره اثني عشر سنة. وقد وجدت في مكتبة المدرسة المتوسطة ما أشبع رغباتي وأروى عطشي في هذا المجال.

¹ مجلة السراج، العدد 4، سبتمبر 2018، ص 4-7. حاوره عنتر رضاني. درست حياة وفكر الشيخ عبد الحميد بن باديس بشكل مفصل في كتابي: الشيخ عبد الحميد بن باديس مسار وأفكار. دار قرطبة، الجزائر، 2024، ط 3.

لقد قرأت كل السلاسل التربوية المعروفة آنذاك والكتب الموجهة للأطفال والشباب حول الأعلام والمشاهير سواء كانوا من العرب والمسلمين أو كانوا من المنتسبين إلى الثقافات الأخرى.

ولم تكن مطالعاتي تتوقف عند نهاية الصفحة الأخيرة للكتاب، إذ كنت أنسخ بخط يدي -في ذلك الزمان الذي لم تخترع فيه بعد آلات النسخ الحديثة- أجزاء من الكتب لأعيد قراءتها في الأوقات الأخرى. بل كنت أحاول أن أجسد بعض المشاهد أو أقلد بعض المواقف الراسخة في الذهن.

وأذكر لك على سبيل المثال أنني قرأت بنهم كتابا عن الشاعر البريطاني وليام شكسبير (1564-1616) في سلسلة "عباقره خالدون"، ثم نسخته بيدي في كراس مدرسي.

كما حاولت تمثيل صورة ملحقة بالنص، كلما تجولت في الغابة المحيطة بمدينة الصغيرة؛ فكنت أجلس تحت الشجرة مثل شكسبير، وأردد بعض أقواله التي حفظتها من الكتاب، وعيناي متجهتان نحو الجبل الشامخ الذي يخفي وراءه عوالم مجهولة كنت أتطلع دائما إلى اكتشافها.

هكذا تولد حب التاريخ عندي، ونمي هذا العشق بعد ذلك بفضل القراءات في المجالات والمطالعات في الكتب ومشاهدة المسلسلات والأفلام التاريخية.

لو تحدثنا بروفيسور عن جملة من أكثر المصاعب التي لاقتك أثناء بحثك في تاريخ الجزائر أو في التراث عموماً؟

لا شك أن البحث في التاريخ فيه متعة اكتشاف المجهول، ولذة قراءة الوثائق المغمورة والمخطوطات، وفرص السفر عبر العصور والقارات بدون دفع ثمن التذكرة أو الاضطراب في طوابير طويلة أمام القنصليات للحصول على التأشيرة.

غير أن هذه الصورة الجميلة تخفي وراءها متاعب الباحث في دهاليز المكتبات أو مراكز الوثائق التي تحتاج إلى الصبر على المتاعب، والتحكم في طرق البحث واستعمال الأدوات العلمية بالشكل المناسب حتى لا يقع الباحث في فخ الوثائق التي تكون ربما مزوّرة أو ناقصة، وتكون بالتالي كل المعلومات المنبثقة منها خاطئة أو غير كاملة، ولا تصلح للاستدلال والاستنتاج حتى لا يظلم الناس بغير حق.

فالمؤرخ هو باستمرار تحت المجهر، لا يسأل فقط عن مصادره بل يسأل قبل ذلك عن صحتها وقوتها. فلا يتمتع بحرية الروائي أو الأديب الذي يطرح ما يشاء من أحداث وآراء ومواقف دون الحاجة إلى الاستدلال وذكر المصادر لأن المطلوب منه هو جمالية النص ولا يهم أن يكون مصدر معلوماته التاريخ أو الخيال أو الواقع.

فالمؤرخ مربوط دائماً بالوثيقة الصحيحة، فبدونها يتعطل عمله. وكمن أعمال تعطلت لما وجد المؤرخ أبواب مراكز الأرشيف أو أرشيف العائلات أو الشهادات الشفوية أبواباً موصدة. لا ريب أنه يستطيع أن يكتفي بالوثائق الموجودة أو يوظف قليلاً خياله لكن هذا الأمر غير متاح دائماً خاصة فيما يتعلق بالقضايا الحساسة.

ويبقى أن أضيف في النهاية أن المؤرخ لا يمكن له أن يبدع إلا في بيئة حرة تقدر قيمة التاريخ كتراث مشترك بسمياته وحسناته، وتناقش بهدوء انتصاراته وإخفاقاته، فالحرية هي أساس الإبداع في كل شيء.

لقد نشرت كتباً وبحوثاً كثيرة في تاريخ الجزائر. ما هي أبرز القضايا التي تناولتها أعمالك؟

التاريخ يشهد على إسهام الإنسان الجزائري في الحضارة الإنسانية التي كانت في تطوّر مستمر بفضل تراكمات أعمال الإنسان وهو يستغل ثروات الكون للتغلب على كل التحديات التي تعيق حياته وتهدد وجوده.

وقد توجت كل هذه الجهود عبر العصور ببناء حضارة متنوّعة راقية. وقد درست في بحوثي وكتبي بعض هذه الأعمال في الفترة المعاصرة، بحكم التخصص وليس انتقاصاً من قيمة الفترات الأخرى القديمة والحديثة.

وخلافاً لما هو معروف، فإن تأثيرات الجزائر في العالم العربي والإسلامي لا تقل عمقاً وامتداداً عن التأثيرات المشرقية في الجزائر وذلك في كل المجالات. فقد بينتُ على سبيل المثال في كتابي "العلاقات الثقافية بين الجزائر والمشرق العربي في القرن العشرين" دور الجزائريين في الحياة الثقافية في المشرق العربي.

كما تطرقت في كتابي "التواصل الفكري بين النخبة الإصلاحية في المغرب العربي" إلى إسهامات الجزائريين في الحياة الفكرية في المغرب وتونس وليبيا، وانعكاساتها على الحركات الوطنية المغاربية.

وعالجت في كتابي "الفكر الإصلاحي المعاصر وقضايا التنوير" زيادة بعض العلماء الجزائريين في تناول موضوعات التقدم وأفكار نهضة قبل العديد من العلماء المسلمين المشهورين في القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين.

وبينت كذلك في كتابي "مالك بن نبي رجل الحضارة" مدى انتشار الفكر البنائي في العالم العربي والإسلامي، واهتمام نخبه بأعماله ودراسة أفكاره النهضوية وتطبيق بعضها في مشاريعها التنموية.

وهناك إسهامات كثيرة أخرى للعقل الجزائري في الحضارة المعاصرة سواء في العالم العربي أو في العالم الغربي فصلت الحديث عنها في كتيبي الأخرى.

تعرضت للكثير من الشخصيات التاريخية، وتناولتها بالدراسة والبحث، فما هي الشخصية التي تركت أثرا عميقا في نفسك دون غيرها؟

-لقد كتبت عن المفكرين العرب والمؤرخين المسلمين والمستشرقين، وحاولت في كل مرة أن أقدم ترجمة مختصرة لكل علم، وكذلك عرض أهم نشاطاته أو دراسة مواقفه أو آرائه أو أفكاره حسب طبيعة كل شخصية.

وفي غالب الأحيان اخترت الشخصيات التي أكتب عنها لقناعتني بإسهاماتها في تطور الإنسانية وخدمة العلم. كما أنني كتبت عن بعض الأعلام بطلب من بعض المجلات لتنشر كدراسات في الأعداد الخاصة أو من طرف الجامعات أو الجمعيات لتقدم على شكل محاضرات في ندواتها التاريخية أو مؤتمراتها العلمية.

وحقيقة، عشت قرابة عشرين سنة وأنا أكتب عن الأعلام من الشرق والغرب، ولا شك أنني تأثرت بأفكار عديدة، واستفدت من تجارب مختلفة، واكتشفت عوالم فكرية وحضارية متنوعة.

وربما تظهر هذه التأثيرات في طرحي الفكري أو في أسلوب كتابتي أو في طريقة كلامي، يلحظها الناس بينما أعجز أنا عن إدراكها. لكن، ما أدركه هو أنني معجب بالعديد من العطاء بغض النظر عن التخصص العلمي لكل واحد منهم، أو اعتقاده الديني أو انتمائه الثقافي.

ومصدر الإعجاب هو بالدرجة الأولى تلك القيم السامية التي آمنت بها الشخصية المدروسة وناضلت من أجل تحقيقها على أرض الواقع. ويأتي بعد ذلك الإبداع الفكري والتجديد العلمي والتأثير الثقافي. وإن كل الذين كتبت عنهم توقرت فيهم هذه المواصفات بدرجات متفاوتة، وهي كلها جديرة بالاستلham منها في جوانب مختلفة من الحياة.

الحديث عن ابن باديس ممتع حقا، كيف لا ونحن نتكلم عن المهمة العالية، والتضحية المجيدة، والنبوغ العلمي والأدبي، فما الذي يمثله شخص العلامة ابن باديس في نظرك؟

-تراعى لي في بدايات دراستي أن الشيخ عبد الحميد بن باديس هو معلم، هاجسه محو الأمية وتعليم أبناء الجزائر أبجديات اللغة العربية ومختارات من آدابها. ثم اعتقدت بعد ذلك أن ابن باديس عالم مهموم بتلقين مبادئ الإسلام وبعض العلوم الشرعية لتلاميذه ورواد مساجده ومجالسه، والإفتاء للسائلين في قضايا الدين.

غير أن قراءات كثيرة لتراث ابن باديس وما كتب عنه غيّرت رأبي، وأقنعتني أنه يختلف عن كثير من المعلمين الأخيار والعلماء الكبار، فقد كان مفكرا اشتغل بقضايا إنسانية، وعالجها بأسلوب علمي دقيق وتحليل عميق لم أقرأ مثله إلا في كتابات النوابع من الشرق والغرب الذين انبهرت بهم، وتعلقت بأفكارهم.

الشيخ عبد الحميد بن باديس جسد قيما كثيرة في حياته الشخصية والعامة. ولن تجد تناقضا بين ما يؤمن به من مبادئ وما يطرحه من أفكار وبين ما يتخذه من مواقف وما يعيشه في واقع الناس.

كان بورجوازيا لكنه تنازل طوعا عن طبقته الاجتماعية ليعيش حياة بسيطة مع المستضعفين وطلبته الفقراء، وينفق كل ما يملك من المال في خدمة مشروعه الإصلاحية.

لقد سافر إلى فرنسا في عام 1936 ولكن قلبه بقي معلقا بمدرسة التربية والتعليم وجامع الأخضر بقسنطينة، فقد كان يفكر في ديون صندوق الطلبة، وهو جالس في الباخرة التي نقلته من الجزائر إلى مرسيليا.

وكان أيضا يعمل دون أجر بين 16 و20 ساعة في اليوم متفرغا للتعليم، ومتابعة أعمال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وإلقاء الدروس، والمحاضرات عبر التراب الجزائري الفسيح.

كما كان يهتم بالكتابة والإشراف على إصدار مجلة "الشهاب"، لذلك لم يقدر جسمه النحيل على تحمّل ثقل هذا العبء المستمر في بيئة معادية يهيم عليها الاستعمار وأذنا به.

وكان هذا الإرهاق المضاعف سببا في موته المبكر، وهو في أوج عطائه. وكان قادرا أيضا أن يهاجر إلى المشرق العربي ويعيش هناك معززا ومكرما لكنه آثر تنوير عقول الجزائريين وكفاح الاستعمار في الجزائر على الراحة في الشام أو الحجاز.

ما هي العوامل التي أهلت ابن باديس لكي يصل إلى ما وصل إليه؟ وما هي الشخصيات التي أثمرت فيه؟

هنالك عوامل متعددة صنعت شخصية الإمام عبد الحميد بن باديس. لا شك أ، العامل الأول هو تلك القدرات العقلية التي وهبها الله له من الذكاء والذاكرة والنباهة. وقد ظهرت علامات نبوغه مبكرا إذ تفوّق على كل دفعته من طلبة جامعة الزيتونة، وحصل على المرتبة الأولى.

وقد تفجّرت هذه المواهب بفضل تأثره بمجموعة من الأساتذة المصلحين كالشيخ حمدان الويسي في قسنطينة، والشيخ محمد الطاهر بن عاشور والشيخ محمد النخلي والشيخ محمد الخضر حسين والأستاذ بشير صفر في تونس، والشيخ حسين المدني في الحجاز.

كما كان لوالده دور آخر وهو توفير كل الأسباب المادية ليتفرغ ابنه للتحصيل العلمي ثم كان له عوننا في الدعوة في بدايات عمله الإصلاحية.

ولا ننسى نقطة أخرى وهي المطالعة المستمرة التي تحسّن الأسلوب وترفع المستوى الفكري وتغذي بالمعارف، وتجدد الرؤية وتزيد في الحكمة.

والذي يطّلع على مكتبة الشيخ ابن باديس العامرة أو يقرأ كتاباته يلحظ بدون مشقة تنوع قراءاته وغزارة معلوماته، وكثرة مصادره، وتعدد اهتماماته إذ لم تكن شرعية فقط وإنما كانت أيضا أدبية وتاريخية وسياسية.

على ماذا قامت سياسة ابن باديس في رئاسة الجمعية؟

ركز الشيخ عبد الحميد ابن باديس رحمه الله على التعليم والتربية. وكان شغله الشاغل بعد عودته من تونس والحجاز هو إصلاح العقيدة ومحاربة الجهل وإحياء القيم السامية عن طريق تعليم النشء ذكورا وإناثا.

وقد رفع شعار التعليم أساس الإصلاح. واستمر ابن باديس في التعليم في مسجد سيدي قموش وجامع الأخضر بقسنطينة.

عندما تأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في 5 ماي 1931، واصل ابن باديس عمله التعليمي والتربوي رغم أعباء تسيير هذه الجمعية، وتفقد شُعبها عبر التراب الجزائري.

أما أهم الأعمال التي أنجزها ابن باديس مع إخوانه من العلماء فهي تتمثل فتح المدارس الحرة، وإنشاء النوادي الإصلاحية في القطر الجزائري وفي فرنسا، وإصدار 4 جرائد متتالية، وهي: "السنة"، و"الشريعة"، و"الصراط" ثم "البصائر".

-عمد ابن باديس إلى إنشاء النوادي الأدبية، والمجلات الثقافية والأدبية، كيف أسهمت في دفع حركة العلم والثقافة في الجزائر؟

أسس ابن باديس جريدة "المنتقد" في عام 1925 لكنها لم تعمر بسبب تعطيلها من طرف سلطة الاحتلال التي أوقفتها بعد صدور عددها الثامن عشر. ولم يستسلم ابن باديس لهذا التعطيل المححف فبادر بتأسيس جريدة أخرى سماها "الشهاب" التي استطاعت أن تقاوم كل الضغوطات الإدارية وتتجاوز العقبات المالية بتحويلها من جريدة أسبوعية إلى مجلة شهرية بداية من عام 1929.

وتعرضت أيضا صحف جمعية العلماء للتعطيل ولم تسلم منها إلا جريدة "البصائر" التي صدرت في سياق تاريخي مختلف في فرنسا وانعكس ذلك على مستعمرتها في الجزائر.

وكانت "الشهاب" للشيخ ابن باديس و"البصائر" لسان حال جمعية العلماء منابر للأقلام الحرة التي تدافع عن مقومات الشعب الجزائري، وتنتقد السياسة الاستعمارية الفرنسية، وتهاجم أذنانها الراضين بالخضوع والهيمنة الاستعمارية للحفاظ على مصالحهم الخاصة الضيقة. وهكذا نشأ جيل كامل أبدع بكتاباته ونشر أفكاره وصرح بمواقفه.

حقا، لقد كانت صحافة ابن باديس وجمعية العلماء مدرسة في الإعلام الهادف والبناء للمجتمع الجزائري والهادم للمشروع الاستعماري الفرنسي.

وكانت النوادي تقوم بنفس الدور التوعوي إذ كانت تستقطب الشباب ليستمع إلى الخطاب الإصلاحى فى قوالب متعددة: الأناشيد والمسرحيات والمحاضرات والدروس...الخ.

ألفت كتابا حول مسيرة ابن باديس بعنوان: "عبد بن باديس مسار وأفكار". ما هي الجوانب التي عالجتها في هذا الكتاب؟ وما هو الجديد الذي طرحته فيه عن العلامة رحمه الله؟

لقد صدر الكتاب فى طبعته الأولى فى عام 2012، وصدرت طبعته الثانية المزيّدة فى عام 2016. لقد رأيت أن الكتابات السابقة التي تناولت شخصية عبد الحميد بن باديس ركزت على ترجمة حياته واكتفت بعرض أعماله وآرائه ومواقفه.

أما أفكاره فلم تدرس بعمق باستثناء آرائه المتعلقة بالتربية وبعض الجوانب الشرعية والأدبية.

أما الجوانب الفكرية التي تظهر فيها لمسات تجديدية لهذا العالم فإنها مضملة تقريبا من الباحثين. لذلك حرصت فى كتابي على دراسة كتابات ابن باديس فى الموضوعات الإنسانية المعاصرة.

وقد اخترت القضايا التالية: التاريخ، والسياسة، والحرية، والعلم، والتقدم. ولم أكتف بمناقشة أطروحات ابن باديس حول هذه القضايا بل قارنتها قدر الإمكان ببعض معاصريه من العلماء المسلمين والغربيين.

حطال ابن باديس تهم مزيفة، ودعاوى جائزة تختلف باختلاف الطاعنين به، فخذنا كلمة نوجهها لهؤلاء حتى يعرفوا قدر الرجل وتلزمهم الحجة في هذا؟

-الشيخ عبد الحميد بن باديس هو عنوان الجدية والتضحية والنزاهة. وهي قيم سامية أصبحت نادرة في عالمنا الراهن. كان ابن عصره بكل ما تحمله من معاني، تأثر بالأحداث والأشخاص في سياقات تاريخية محددة، وأثر -هو- في وقائع عديدة خاصة في مجال التنوير والتحرير.

ولا تزال آثاره مثمرة إلى يومنا لأن خطابه قام على الحجة والعلم وحب الوطن، وكل شيء قام على هذه الأسس سيظل خالدا في ذاكرة شعبه، وسيبقى حيا في حاضر مجتمعه.

وإذا أراد البعض أن يسقط الحاضر على الماضي ليقراً الوقائع ليس كما وقعت لأسباب بينة وسياقات واضحة، ولكن ليقراه كما يريد هو أن يقع، فهذا خلل في المنهج، فالتاريخ ليس رواية أدبية أو سيناريو تلفزيوني أو سينمائي نحمّله ما لا يطبق لدوافع إيديولوجية أو لأسباب فنية أو لأغراض تجارية...

﴿الشيخ عبد الرحمن الجيلالي فقيه ضليح ومؤرخ متبحر﴾¹

تحدث الدكتور مولود عويمر عن مختلف المحطات الحاسمة في تاريخ العلامة عبد الرحمن الجيلالي، وعاد في حوار مع الخبر إلى منجزات هذا الفقيه والمؤرخ والعالم في عديد المجالات العلمية والأدبية. وقال إن الشيخ عبد الرحمن الجيلالي تبوأ تلك المكانة العلمية بفضل عدة عوامل ومؤهلات صنعت منه ذلك الفقيه المؤرخ الذي أصبح مثالا يحتذى به.

- حلت أمس الذكرى العاشرة لرحيل العلامة عبد الرحمن الجيلالي، ماذا تمثل هذه الشخصية بين أسماء الفقهاء والمؤرخين الجزائريين؟

- الشيخ عبد الرحمن الجيلالي من أبرز الشخصيات العلمية التي تركت بصمات واضحة في الحياة الأدبية والعلمية في الجزائر في تاريخنا المعاصر، فقد كان اسمه لامعا في سماء العلماء منذ صدور كتابه "ذكرى محمد بن أبي شنب" في عام 1932، وقامت الصحافة العربية في الجزائر بتقريظه والتنويه بمضمونه وكفاءه صاحبه. وتضاعفت شهرته بعد تقديمه للحصص الدينية في الإذاعة في فترة الأربعينيات والخمسينيات.

¹ الخبر، 15 نوفمبر 2020، ص 22. حاورته لامية أورتيلان.

واعترف معاصروه بنبوغه فكان محل الاستشارة والاستفادة عند العلماء وأصحاب المطابع في ما له صلة بالعلوم الشرعية، وأذكر هنا على سبيل المثال إشرافه على تصحيح كتاب: "الخطب المنبرية" للعالم المعروف الشيخ أبو يعلى الزواوي.

ثم أضاف الشيخ الجيلالي إلى ذلك شهرة أخرى في مجال علم التاريخ بعد صدور كتابه " تاريخ الجزائر العام" في عام 1954 والذي نال رواجاً بين القراء، وحظي باهتمام الأدباء والعلماء المعاصرين. وهكذا عاش الشيخ عبد الرحمن الجيلالي فقيهاً ضليعاً في العلوم الشرعية والفتوى، ومؤرخاً متبحراً في تاريخ الجزائر إلى أن التحق بالرفيق الأعلى في 12 نوفمبر 2010.

- جمع الشيخ عبد الرحمن الجيلالي بين الدين والعلم والإعلام، وتخصص في الفقه والتاريخ ومختلف العلوم، كما يملك رصيداً مهماً من الأعمال.. في رأيك ما هي المؤهلات التي صنعت هذا العلامة الذي عاصر الحربين العالميتين الأولى والثانية وحرب التحرير؟

- هناك عوامل عديدة ساهمت في تكوين شخصيته بهذا الشكل الناجح. أذكر في البداية القدرات التي وهبها الله لهذا الإنسان من قوة الحافظة والذكاء الحاد والشجاعة الأدبية والصحة البدنية... ولا شك أن هذه القدرات لم تكن تنفعه طويلاً إذا لم ينتبه لها المعلمون والأساتذة الذين كانوا يدرسونهم ولم يقدّروا وجودها ولم يهتموا بتنميتها.

كان هذا الشاب محظوظاً حقاً عندما درس على كبار علماء الجزائر في ذلك العصر مثل الشيخ عبد الحليم بن سهاية والشيخ المولود الزريري والدكتور محمد بن أبي شنب، فاعتنوا به عناية خاصة فأخذ عنهم العلوم المختلفة وأجازوه بالإجازات

العلمية منها إجازة في صحيح البخاري الذي حرص على قراءته باستمرار وتدريس أبوابه بعد الاستقلال في جامعة الجزائر.

ولا شك أن البيئة العلمية كانت لها نصيب كبير في تكوين شخصيته وتنمية قدراته ومواهبه؛ فقد كانت مدينة الجزائر في فترة شبابه تعج بالعلماء المصلحين إذ ظهرت فيها النوادي الثقافية، وصدرت فيها الجرائد العربية، وتنافس العلماء فيما بينهم في التدريس في المساجد والجموع المشهورة في هذه الحاضرة، والقاء المحاضرات وتأسيس الصحف، فاختلط الشاب الجيلالي بهذا الحراك الثقافي والديني، وحضر هذه الجلسات والمسامرات والنشاطات خاصة وأنها كانت تقام في محيط ساحة الشهداء حيث كان يشتغل، وفي القصبة حيث كان يسكن.

وفضلا عن كل هذه العوامل السابقة، لا بد أن أذكر أيضا طول العمر وبركته، فقد عاش الشيخ عبد الرحمن الجيلالي أكثر من قرن، قضى جله في التدريس والتعليم والكتابة والاختلاط بالعلماء في الجزائر وفي الخارج، والظهور الإعلامي في الاذاعة والتلفزيون في حصص دينية وتاريخية تابعها الجزائريون لفترات طويلة. لقد اكتسب خلال هذا العمر الطويل خبرات وتجارب كثيرة في العلم والحياة، وتمثل دائما بالأخلاق الرفيعة وحسن الخطاب ف جذب إليه العقول قبل أن يجذب إليه القلوب.

- يعتبر كتاب "تاريخ الجزائر العام" المنشور سنة 1954 وبعدها في عدة أجزاء، مرجعا لا يمكن لدارسي تاريخ الجزائر الاستغناء عنه، لماذا وما هي خصوصيات هذا المرجع خاصة وأن موضوع تاريخ الجزائر تناولته عدة كتابات عربية وأجنبية فيما بعد؟

هذا الكتاب هو من أهم الكتب التي صدرت في فترة الاحتلال الفرنسي بأفلام جزائرية وعربية والتي تناولت تاريخ الجزائر عبر العصور مثل مؤلفات أبي القاسم الحفناوي وأبي يعلى الزواوي ومبارك الميلي وأحمد توفيق المدني وعثمان الكعك.

والملفت للإنتباه في هذا الموضوع هو حرص الشيخ الجيلالي الدائم على تحسين الكتاب في الطبقات المختلفة بإضافة تعليقات وزيادات أخرى حتى تطوّر الكتاب شكلا ومضمونا ووصل إلى 5 أجزاء عوضا من الجزئين الصادرين في عامي 1954 و1955؛ فكان التأريخ بالشكل الدقيق والصحيح هاجسا علميا لديه يرافقه حيث ما رحل فكان يتروّد باستمرار بالوثائق والمخطوطات والكتب... ليطمع بها كتابه الذي يحرص دائما على أن يخرج في أكمل نسخة ويظهر في أجود طبعة.

وتكمن أهمية هذا الكتاب في شمولية موضوعه وسهولة أسلوبه وكثرة مصادره فقد تناول تاريخ الجزائر منذ العصر القديم إلى فترة المعاصرة معتمدا على كم هائل من المصادر والمراجع بالعربية والفرنسية بفضل ترجمات زوجته أم غالب.

ومن أهم بصماته في نظري تتمثل في تلك الترجمات الوافية لشخصيات مرموقة عاشت في عصره واتصل بها بشكل مباشر: أذكر منها: أبو القاسم الحفناوي، محمد بن مصطفى بن الخوجة، محمد بن أبي شنب، الدكتور محمد بن العربي، الأمير خالد، عبد الحليم بن سماية، محمد بن عبد الرحمن الديسي... الخ.

وهو كتاب تاريخي وطني بامتياز لأن المؤلف كان يهدف وراء كل جملة إلى ربط الشباب الجزائري بماضيه العريق، والدعوة إلى الاقتداء بالسلف والاعتزاز بإنتاجه الحضاري والقومي. والشيخ عبد الرحمن الجيلالي لم يكن مؤرخا بالمفهوم الأكاديمي

المعروف، شأنه في ذلك شأن كل المؤرخين الذين عاصروه كعبد الرحمان الرافي في مصر، وحسن حسني عبد الوهاب في تونس ... إلا أن كتاباتهم تحمل المكونات الضرورية للكتابة التاريخية وإن احتاجت بعض نصوصهم إلى التعميق المنهجي والتحقيق الوثائقي والمراجعة العلمية.

ويعتبر كتاب "تاريخ الجزائر العام" بخاصة في صيغته الحالية مرجعا من المراجع الهامة في تاريخ الجزائر ليس فقط عند الباحثين الجزائريين وإنما عند كل المهتمين بتاريخنا. ولا شك أن صدور الكتاب في بيروت عدة طبعات ساهم كذلك في هذا التتويج العالمي.

- ترك الراحل أرشيفا كبيرا من المقالات والتسجيلات خاصة بالإذاعة والتلفزيون، في رأيكم كيف يمكن للجيل الجديد الاطلاع عليها، وبالتالي الاستفادة منها؟

-ترك الشيخ الجيلالي تراثا علميا منشورا وآخر مشتملا وموزعا بين الصحف والمجلات الجزائرية مثل النجاح، الإقدام، البصائر، الشهاب، هنا الجزائر، الأصالة، الثقافة، الشعب، والسلام...الخ. كما أن له مجموعة من المحاضرات التي قدمها في العديد من المناسبات العلمية ولم تنشر بعد. هذه الآثار في حاجة إلى جمعها كلها وتبويبها في فصول ونشرها في كتب ليستفيد منها الطلبة والباحثون وكل المهتمين بالفكر الجزائري.

وكذلك ترك الشيخ عبد الرحمن الجيلالي رحمه الله تراثا سمعيا بصريا غنيا يستحق إحياء كل كلمة فيه من خلال إعادة بثه في القنوات التلفزيونية خاصة قناة "الذاكرة" الجديدة والمواقع الإلكترونية ووسائل التواصل المختلفة.

كما أتمنى أيضا أن تقوم مؤسسات تابعة لوزارة الشؤون الدينية ووزارة الثقافة ووزارة التعليم العالي والبحث العلمي.... بجمع هذا التراث السمعي البصري ونقله إلى نصوص مكتوبة وإصدارها في كتب كما فعل محبو الشيخ الشعراوي وغيره من العلماء المعروفين في العالم العربي والإسلامي الذين تحولت دروسهم ومحاضراتهم وخطبهم إلى كتب منتشرة بين القراء، ومؤلفات محفوظة في المكتبات، ومصادر للبحث عند الطلبة والباحثين.

الدكتور علي شريعتي رائد العقلانية الإسلامية¹

الدكتور علي شريعتي رغم انتمائه إلى إيران جغرافياً، لكنه كان بحجم محور طنجة جاكارتا. كان إسلامي التفكير، كان ينطلق من الهم الإسلامي العام، عقلية فذة تشبه عقلية مالك بن نبي في الانتماء لهم العالم الإسلامي، ورغم انتمائه إلى مدرسة أهل البيت فقهاً، لكنه كان خارج قيد المذهب وضوابط المذهب الذي يرسم للمفكر مسارات فكره.

-صحيح ما ذكرته هو أنّ الدكتور علي شريعتي قبل أن يكون مفكراً إيرانيّاً، فهو مفكّر إنساني، فالدكتور علي شريعتي إذا درسنا مجموعة كتبه، فإنها تتحدّث عن التاريخ والحضارة، تتحدّث عن الغرب وتتحدّث عن الحرية.

وكل هذه القيم هي قيم إنسانية وليست قيماً مرتبطة بزمن معين أو بقطعة جغرافية معينة، فالدكتور علي شريعتي على الأقل كما فهمته وكما وجدته في جميع كتبه، خاصة كتبه الفكرية، يطرح فكراً إنسانياً.

¹ حاوره الصحافي يحيى أبو زكريا، قناة الميدان، بيروت. درست أيضا فكر الدكتور علي شريعتي في كتابي: الفكر الإصلاحي وقضايا التنوير. منشورات مؤسسة الإمام عبد الحميد بن باديس-دار الهدى، قسنطينة، 2017، ص 98-108.

وهذا ليس غريبًا على هذا المفكر الذي عاش في إيران وعاش أيضًا في فرنسا وبريطانيا. لقد إطلع على التراث الإنساني والفكر الغربي، وهو ما زال طالبًا في جامعة طهران قبل أن يذهب إلى فرنسا.

وكان أول عمل يقوم به وهو ينزل في باريس عاصمة العلم والمعرفة، هو البحث كتاب الحج للمفكر الفرنسي الأمريكي في ما بعد، وهو ألكسس كاريل، ليترجمه إلى اللغة الفارسية. فإذًا هذا الاهتمام المبكر بالفكر الغربي، وبالفكر الإسلامي في شموليته بمذاهبه المختلفة.

هذا دليل قاطع على أنّ هذا الرجل تجاوز جغرافيته، تجاوز العوائق الاجتماعية، والعوائق المذهبية، والعوائق الفكرية، والعوائق السياسية، والعوائق الجغرافية لكي ينتصر عليها كلها في الأخير، ويُنتج فكرًا يصبح فكرًا إنسانيًا يستفيد منه ليس فقط الإيرانيون، وإنما أيضًا يستفيد منه كلّ المسلمين في العالم أو المهتمون بالفكر الإنساني المعاصر.

هنالك تشابه كبير بين المفكر الجزائري العملاق مالك بن نبي والدكتور علي شريعتي، في سياق وضعها لحظة الانطلاق والنهضة في العالم الإسلامي..كيف تزاوج بين هذين العقليين؟

قبل أن أجيب عن هذا السؤال المهم جدا في مقارنة بين فكر الدكتور علي شريعتي والأستاذ مالك بن نبي، أريد فقط أن أعقب على ما سمعته، هو أننا سنظلم كثيرًا الدكتور علي شريعتي إذا نسينا في لحظة من اللحظات أنه خريج جامعة السوربون وأنه عالم اجتماع، فإنه درس التراث الشيعي بمقاربة أنتروبولوجية، بمقاربة اجتماعية، بمقاربة فكرية، ولهذا ربما وجد فكره صعوبة، وربما سوء فهم من طرف النخبة الدينية في إيران.

الآن نعود إلى سؤالك، صحيح أنّ هناك تشابهاً كبيراً، قواسم مشتركة بين شريعتي وبين مالك بن نبي، لو أتينا فقط للناحية التاريخية، وجدنا أنّ كلاً من مالك بن نبي وعلي شريعتي درس في الغرب، وكلّ واحدٍ منهما تأثر إلى حدٍ ما بالحراك الفكري والثقافي الذي ساد في فرنسا، وكلّ واحدٍ منهما تأثر بمجموعة من المفكرين والأدباء والنخبة والفلاسفة الفرنسيين.

ولا ننسى مثلاً علي شريعتي درس في السوربون على لوي ماسينيون، على جاك بيرك، وعلى جورج كورفيتش، وهؤلاء العلماء تأثر بهم تأثراً كبيراً.

وعندنا مراسلات بين علي شريعتي وماسينيون تدل حقيقة على هذه العلاقة الحميمة الأبوية العلمية بين علي شريعتي ولويس ماسينيون. وأيضاً علي شريعتي ساعد كثيراً لوي ماسينيون في ترجمة بعض النصوص الفارسية في ما يتعلق مثلاً بحياة فاطمة الزهراء.

إذاً كل واحد من هذين العالمين العملاقين إلى حدّ ما درس الفكر الغربي وتأثر بهذا الفكر الغربي، ومن هنا جاءت دراستهم لواقع العالم العربي والعالم الإسلامي بناءً على هذه المقاربات الاجتماعية، المقاربات الفكرية، المقاربات الحضارية بواقع العالم الإسلامي.

إنهما فلم يكتفيا فقط باستعمال الأدوات الكلاسيكية التراثية الموجودة في تاريخنا وحضارتنا، وإنما أيضاً استعملا هذا المنهج العصري، منهج العلوم الاجتماعية على تراثنا وكذلك على واقعنا.

وهذه القراءة العميقة الدقيقة العصرية أوصلتهم إلى مجموعة نتائج، لأنّ أهمّ ما هو موجود في العلم هو أننا نصل في النهاية إلى نتائج. ومن هذه النتائج نظريات وتصورات في تغيير هذا

الوضع، أي واقع العالم الإسلامي وخاصة في تلك المرحلة، واقع التخلف، واقع التشرذم، الواقع الاستعماري خاصة.

إذا أتينا إلى مثال مالك بن نبي الذي عاش واقعًا استعماريًا، وأيضًا علي شريعتي تفاعل مع الواقع الاستعماري في الجزائر وهو طالب في فرنسا، وشارك في تظاهرات وساند هذه الثورة الجزائرية ودخل إلى السجن من أجلها.

فهذا التعامل الفكري، العلمي الاجتماعي الانتروبولوجي للواقع أوصلهم إلى النتيجة، وهي تقريبًا نتيجة متشابهة، وهي أنّ الحلل في هذا الواقع، فمالك بن نبي أرجعه إلى القابلية للاستعمار أي هناك ظروف اجتماعية، ثقافية، سياسية، هي التي ساعدت على التخلف وسمحت لهذا المستعمر الأوروبي بشكل خاص أن يستعمر هذا العالم العربي الإسلامي.

وعلي شريعتي أيضًا له نظرية شبيهة بنظرية القابلية للاستعمار التي طرحها مالك بن نبي في عام 1948 أولاً في كتابه "شروط النهضة"، ثم في ما بعده طوّرها أكثر في وجهة العالم الإسلامي، وفي كتابه "مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي"، وفي كتابه "الصراع الفكري في البلاد المستعمرة".

أيضاً الدكتور علي شريعتي وصل إلى نتيجة وهي فكرة الاستعمار هذا الاستعمار طبعًا بوجهها المباشر وغير المباشر. يمكن أن نعود إليها ونفصل في هذا البحث ونصل للنتيجة وهي أنّ الحلل في العالم الإسلامي يكمن في هذا الحلل الداخلي.

بالعودة إلى كتاب الدكتور علي شريعتي "تاريخ الحضارة"، في تاريخ الحضارة تدرك أنك أمام عقلية قارئة، وهنا أكد توافقني القول وتشاطرني الرأي على أنّ العقل الإسلامي عندما كان منفتحاً على الفلسفات، على الإنتاج المعرفي الآخر، كان مطاطاً، كان قوياً، كان سائداً، وعندما للأسف الشديد توقع على القشور واهتمّ بصغائر الأمور، بإرضاع الكبير وطاعة الأمير، ضاع هذا الفكر الإسلامي. هنا اقتبس عبارة للدكتور علي شريعتي، يقول "أما تاريخي الفكري فهو يختلف عن تاريخه الفكري، فهو يجب أن يعتمد على حاضره لأنه صنع حاضرًا، أما أنا فمؤوتي التاريخ"، وهنا اللاتوازن بين المنتج المعرفي الغربي والمنتج المعرفي الإسلامي. ما الذي تقوله في هذا السياق؟

- كتاب "تاريخ الحضارة" هو في الحقيقة بضخامته (كتاب في جزئين)، يتكوّن من مجموعة محاضرات قدمها الدكتور علي شريعتي، واستطاع تلامذته أن يجمعوها في كتاب كما جمعوا كل محاضراته وكل تراثه. ونشروا تراثه السمعي الذي صار تراثًا مكتوبًا يُقرأ، وموجودًا قائمًا إلى اليوم.

هذا الكتاب أي "تاريخ الحضارة" عندما كنت أقرأه أشعر كأنّ أممي كتاب "دراسة للتاريخ" للمؤرخ العظيم البريطاني أرنولد توينبي، فهذا الكم الهائل من الأحداث، من الدراسات، من الأفكار، من المعالم، من الشخصيات.

كل هذا يدل على أن هذا الرجل كان يقرأ كثيرًا، متفتحًا على الحضارات كلها، أمثلة كثيرة من تاريخ الفراعنة، أمثلة كثيرة من تاريخ الصين، أمثلة كثيرة من تاريخ اليونان.

فهذا التفتح على كل الحقبات، استطاع في النهاية أن يفهم هذه الأفكار، يفهم هذه الحضارات ويستوعبها ويخلص في النهاية إلى وضع هذه الأفكار لأنها في البداية كانت أفكاراً ثم تحوّلت إلى كتاب،

فهذا الكتاب دليل على أنّ التفتح في الحضارات أو أنّ الحضارة بنفسها هي تراكمات. الحضارة لم يصنعها اليونان فقط، لم يصنعها الصينيون فقط، لم يصنعها الرومان فقط، لم يصنعها المسلمون فقط، لم يصنعها الأوروبيون فقط. الحضارة هي تراكم.

ولهذا يعجبني كثيراً الدكتور علي شريعتي عندما يتحدّث عن التاريخ قبل أن يتحدث عن الحضارة، يتحدث عن التاريخ، بأنه ليست سلسلة من الأحداث هو ليس مجموعة معالم، ليست تراكمات لشخصيات، وإنما هذه الديناميكية.

وهذه الروح التي تكلم عنها هيغل في كتابه أيضاً "محاضرات في فلسفة التاريخ"، تنتقل من شعوبٍ إلى أخرى، من حضاراتٍ إلى أخرى، من أقطارٍ إلى أخرى، لكن تبقى دائماً حية...

تحدّث أيضاً الدكتور علي شريعتي عن المنعطف، يبحث عن المنعطف في الحضارات، متى استطاعت هذه الحضارة أن تتجاوز تخلفها، مرحلة التطور، مرحلة النهضة، مرحلة الحضارة، مرحلة التنمية.

فهذا الكتاب حقيقة، أنا أعتبره بالإضافة إلى كتابه "العودة إلى الذات"، هما متشابهان، ذخيرة للأفكار الحضارية، تدعو إلى يقظة جديدة، إلى نهضة جديدة، والدعوة إلى إقلاع حضاري في العالم الإسلامي.

ولن يكون هذا الإقلاع ممكناً أو لن ينجح هذا الإقلاع، ولن تنجح هذه التنمية في العالم العربي والإسلامي ما لم يكن هناك تفتح على كل الحضارات.

وتجربة الإسلام واضحة، فالحضارة الإسلامية انطلقت انطلاقاً قوية في (العصر العباسي) لما انفتحت على الحضارات السابقة وترجمت تراثها فانتشرت في العالم وأثرت فيه.

❖ فكر مالك بن نبي ما زال حيا وتأثيره بقي قائما إلى اليوم¹ ❖

نعرف أن مالك بن نبي لم يتمكن من دراسة ما كان يرغب فيه لكون تكوينه علميا ولكنه مع ذلك تمكن من أن يكون مهندسا، في مجال الكهرباء واستطاع أن يغوص في مسائل الحضارة بعمق، ما تقديركم لهذه الشخصية المركبة؟

مالك بن نبي جاء في الوقت المناسب، فقد تزامن ظهوره مع الموجة الثانية لحركة التجديد الفكري والإصلاح الديني في العالم العربي والإسلامي، والتي انطلقت مع رفاة الطهطاوي ومحمد عبده في مصر، وجمال الدين الأفغاني في بلاد ما وراء النهر، والطاهر الجزائري ومحمد كرد علي في الشام، وخير الدين باشا في تونس، ومحمود ابن العنابي وعبد القادر المجاوي وصالح مهنا ومصطفى بلخوجة في الجزائر... وقد عاش بن نبي في هذه البيئة الإصلاحية في قسنطينة والتبسة، فتأثر بأعلامها المصلحين واستلهم من أفكارهم وشارك في أعمالها. لذلك توجه مبكرا إلى قراءة الكتب المؤسسة للفكر الاسلامي والتراث العربي مثل كتابات ابن خلدون، عبد الرحمن الكواكبي، محمد عبده، شكيب أرسلان، أحمد رضا التركي... الخ.

ولما سافر إلى باريس لمواصلة تحصيله العلمي، اتصل مباشرة بمعهد الدراسات الشرقية الشهير غير أنه لم يوفق في التسجيل النهائي، فاضطر إلى الالتحاق بمدرسة

¹ حاورته ل. م، السلام، العدد 3464، 20 نوفمبر 2022، ص 13 و14. درست أيضا حياة وفكر مالك بن نبي في كتابي: مالك بن نبي رجل الحضارة. شركة الأصالة للنشر، الجزائر، 2021، ط 4.

اللاسلكي للتخصص في حقل الكهرباء، ومع ذلك ظل مشغولاً بالفكر ومهما بقضايا الانسان والاجتماع واستطاع أن يتعمق في دراستها وتحليل عناصرها وتركيب أجزائها مستعيناً بالمنهج العلمي الحديث. فظهرت أعماله بشكل مختلف تماماً عما تعود عليه الفكر الإسلامي في عصوره القديمة والحديثة، فبحث من اللغة العربية مصطلحات مفتاحية لفهم حركة التاريخ وحاضر العالم الإسلامي ومستقبله، وعالج مشكلات الحضارة من خلال مقاربات فكرية.

لا شك أن معالجة صحيحة للموضوعات الانسانية والاجتماعية يتطلب رصيذاً من التفكير السليم والتأمل العميق والنقد البناء. وهذا ما يجده القارئ لأبرز كتبه مثل "شروط النهضة"، "مشكلة الثقافة"، "ميلاد مجتمع"، "الصراع الفكري في البلاد المستعمرة"، و"مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي"... الخ.

ما هي قيمة كتابه "الظاهرة القرآنية" في إعادة تجديد رؤيتنا لدراسة القرآن؟

يعتبر هذا الكتاب أول ما نشره مالك بن نبي في عام 1947، وكتبه مرتين بعد أن احترقت النسخة الأولى المخطوطة. وقد قدم فيه نظرة جديدة للقرآن باعتباره كتاب إجاز ليس فقط من جانبه البلاغي والبياني وإنما أيضاً من خلال إيجازه العلمي ومقارنته بالكتب الساوية السابقة التي استحضرتها في مقارنته بين القرآن وكتاب العهد القديم في موضوع قصة سيدنا وسف عليه السلام. كما لجأ إلى علم النفس وعلم الأحياء لدراسة شخصية الرسول محمد (ص) والوقوف عند ظاهرة الوحي والرسالة.

وهذا الابتكار في الدراسة موضوعاً ومنهجاً في فترة الأربعينيات القرن العشرين كان بمثابة ثورة فكرية لم يستطع استيعابها كلية الكثير من العلماء المسلمين بما فيهم

المتخصصون من أمثال محمود شاكر الذي كتب تصديرا لطبعته العربية كاد مالك بن نبي أن يتخلى عن نشره بسبب حجمه الكبير الذي تجاوز 30 صفحة وعالج الموضوع بمنطق الدفاع والتركيز على الجانب البياني فقط. والقرآن يدرس في أبعاده المتعددة وموضوعاته المختلفة واستخدام الوسائل العلمية الحديثة لفهم مقاصده والاستفادة من ذخائره والاقتراب من أسراره.

هل ترون أن مالك بن نبي أقرب إلى جمعية العلماء المسلمين أم بما يعرف من نهضة في الهند وباكستان وغيرها؟

كان مالك بن نبي قريبا من جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، فاتصل بقادتها وكتب في جريدتها البصائر، بل تمنى أن يكون ممثلا لها في فرنسا للتعريف بدعوتها والترويج لأعمالها في المهجر. وقد أعجب برئيسها الإمام عبد الحميد بن باديس وكتب عنه عدة مقالات منوها بأفكاره التجديدية وفعاليته الاجتماعية. غير أنه لم يتردد في نقد بعض آرائها وأعمالها مثل ما فعل مع المؤتمر الإسلامي (1936) الذي رأى في مشاركتها فيه انحرافا عن مسارها الاصلاحى وانشغالا بالسياسة على حساب الجوانب التعليمية والتربوية. كما اهتم بن نبي بكل الحركات الاصلاحية التي ظهرت في العالم العربي والإسلامي، وناقش أعمالها في كتبه بخاصة كتاب "وجهة العالم الإسلامي"، الذي تنبأ فيه بتحوّل مركزية الإسلام من العالم العربي إلى جنوب شرق آسيا، مثيرا بذلك اعتراض بعض المفكرين الإسلاميين المتأثرين آنذاك بالمد القومي العربي خاصة في الفترة الناصرية. وكان معجبا ببعض الشخصيات الاسلامية كالشاعر الهندي محمد

إقبال، والمفكر التركي أحمد رضا بينما انتقد محمد علي جناح وأبا الأعلى المودودي، وكان ضد تقسيم شبه القارة الهندية وتأسيس دولة باكستان. وقد عالج هذه المسألة بشيء من التحليل النفسي والحفر الاستراتيجي العميق في كتابه النفيس: "الصراع الفكري في البلاد المستعمرة".

يعترف مالك بن نبي أنه درس على يد المفكر الجزائري المظلوم بن ساعي، فهل لكم أن تبينوا لنا العلاقة بين الرجلين؟

ذكر مالك بن نبي هذا الكلام في الجزء الثاني من "مذكرات شاهد القرن"، حيث وصف صديقه حمودة بن ساعي بمعلمه الأول. وقد انطلق الكثير من محبي مالك بن نبي أو دارسوه في البحث أكثر في هذه العلاقة ودراستها وتحديد تأثيرها على شخصية بن نبي وتكوينه الفكري، وقد بالغ الكثير في تقييها.

لا شك أن الصداقة كانت قوية بين الرجلين، وتخللتها أحيانا فترات من الخلاف والتنافس وربما الغيرة بسبب أن الشخصيتين تتميزان بمزاج حاد وقلق دائم لأسباب نفسية واجتماعية ومادية، إلا أن جلساتها كانت دائما مثمرة ومتكاملة، فبن نبي كانت له ثقافة علمية وأدبية وتاريخية واسعة، بينما كان بن ساعي مطلعاً على الفلسفة ومتابعاً للشأن السياسي. وشهادة بن نبي جاءت في نظري من باب الود والتقدير، فالمعلم هو الذي يوجه ويعلم المبادئ ثم تبقى البقية على التلميذ الذي يجتهد في المراحل الأخرى لكي يتميز ويتفوق ويرتقي في مساره.

ليس كل معلم عالماً أو مفكراً، فلكل واحد مهمته الخاصة ومستواه المطلوب، وقراءة ما كتبه حمودة بن ساعي لا يبين أنه كان مفكراً وصاحب رؤية ثاقبة. وهنا

أقول أن تأثيره على بن نبي هو من باب التوجيه وليس من باب التأثير الفعلي الذي غير مساره أو أعاده إلى حضيرة الفكر الذي ولج فيها منذ نعومة أظفاره ولم يخرج منها في يوم من الأيام. عندما التقى بن نبي بجمودة بن ساعي كان الأول وراءه رصيد معتبر من الثقافة العربية الاسلامية ويقظة فكرية تجاه القضايا الكبرى التي تمس العالم المعاصر. ولا شك أن الجلسات المشتركة بينهما رسخت ميوله الفكرية واهتماماته بقضايا التراث وأزمات العصر وساعدته على التخلص من ضغط دروس الرياضيات والعلوم التي كان يتبعها في معهد اللاسلكي.

هل أثر مالك بن نبي في الأجيال اللاحقة؟

لا شك في ذلك فعدد الطلبة العرب والمسلمين الذين يقرون بتلمذهم على بن نبي كبير، سواء الذين حضروا مجالسه الأسبوعية في القاهرة في فترة الخمسينيات أو استمعوا إلى محاضراته في فرنسا، مصر، سوريا، لبنان، ليبيا، السودان، بلجيكا، والولايات المتحدة الأمريكية...أو الذين كانوا يلزمون ندوته الأسبوعية في الجزائر في فترة الستينيات والسبعينيات.

أما عدد قرائه فإنه يتضاعف في كل سنة خاصة بعد صدور كل كتبه في طبعات كثيرة وانتشارها في العالم باللغات المختلفة في المكتبات والأسواق والمواقع الالكترونية. فهو من أكبر المفكرين المعاصرين الذين يقبل الناس على قراءة مؤلفاتهم. وسحر مالك بن نبي يكمن في لغته الفرنسية الجميلة فضلا عن ترجمات عبد الصبور شاهين والطيب شريف الموقفة إلى حد بعيد، وتحليله العميق، وموضوعاته الشيقة التي تمس مشكلات الحضارة ومستقبل الإنسان.

هل تعتقدون مالك بن نبي قد أخذ حظه من الدراسة وهل استفادت منه الأجيال بالقدر الكافي؟

لقد أشرت في كتابي "مالك بن نبي في الدراسات المعاصرة" إلى الكم الهائل من الكتب والمقالات والأطروحات الجامعية التي انجزت حول حياة وأعمال هذا المفكر الجزائري. ولا يمر شهر دون أن ينشر حوله مقال أو سنة دون صدور كتاب أو تقام ندوة أو ملتقى حوله.

وهذا كله يدل على أن فكره ما زال حيا، وأن تأثيره بقي قائما إلى اليوم رغم مرور قرابة نصف قرن على وفاته أو مرور أقل من قرن على ظهور كتبه الأولى. غير أن الإقبال على كتبه لا يعني أبدا أن الكل فهموا ما قرؤوا أو طبقوا أهم أفكاره الوظيفية أو النظرية على أرض الواقع مثل احترام الوقت واستثمار الثروات عوضا من استهلاكها أو بيعها، والمحافظة على البيئة والبناء عوضا من تكديس الأشياء والأفكار، وتفعيل شروط النهضة لميلاد المجتمع المنشود.

1 حصاد السنين

لقاؤنا هذه المرة يكون مع المؤرّخ والمفكر الجزائري الدكتور مولود عويمر الذي زرته في مقر عمله بقسم التاريخ بجامعة الجزائر. ورحب كثيرا بفكرة الحوار مع جريدة "العراق اليوم" حول مشواره العلمي وتجربته في النشاط الفكري.

هذا الباحث المعروف في مجال الفكر والتاريخ هو من النخبة الجزائرية المهاجرة التي استفادت كثيرا من معاشتها في العالم الغربي، ثم عادت إلى أرض الوطن لخدمة مجتمعه والمساهمة في تطوره في مختلف المجالات. ولم يتوقف منذ عودته في عام 2004 عن الكتابة في الصحافة والمشاركة في الحصص التلفزيونية والإذاعية، وإلقاء المحاضرات في العديد من المنتديات الدولية والوطنية.

وإليك الآن أيها القارئ الحوار الذي أجرته مع الدكتور مولود عويمر ساعتين قبل دخوله إلى قاعة المحاضرات ليقدم درسا في مادة "تقنيات تحرير الرسالة أو البحث" لطلبة قسم الماستر 2.

¹ نشر الحوار مع الإعلامي رمضان نايلي في جريدة العراق اليوم، في الفترة الممتدة بين 25 فبراير إلى 14 مارس 2015، تحت عنوان: "لقاء مع المؤرّخ والمفكر الجزائري الدكتور مولود عويمر". ونشر أيضا في كتاب رمضان نايلي. حوارات في الفكر والأدب والثقافة. فضاءات للنشر والنشر والتوزيع، عمان، 2016، ص 35-48.

- جرت العادة في اللقاءات السّؤال عن البدايات، فماذا يقول لنا الدكتور مولود عويمر عن بدايته؟

- كانت محطتي الأولى في هذه الحياة في مدينة بوغني بمنطقة جرجرة ذات الطبيعة الساحرة التي أثرت كثيرا في حياتي، فقد زرعت في نفسي الذوق الجمالي وصفاء الذهن وذهنية التفاؤل وسعة الخيال وحب المغامرة.

نشأت في هذه البيئة الخلابه، ودرست مرحلتي الابتدائية والإعدادية في مسقط رأسي على معلمين أكفاء ومخلصين لرسالة التربية والتعليم.

وبعد حصولي على شهادة البكالوريا في ثانوية تبعد 15 كيلومترا عن بلدي، التحقت بجامعة الجزائر لمواصلة الدراسات العليا. واخترت تخصص التاريخ عن قناعة لأنني أحببته منذ صغري بسبب مطالعاتي المبكرة لأشهر الموسوعات والسلاسل التي تتناول عطاء التاريخ في مجالات مختلفة وفي حضارات متعددة.

لقرأت كل الكتب المتوفرة في مكتبة متوسطي و ثانويتي في هذا المجال. كما سحرتني المجالات العربية التي كنت أشتريها مثل: العربي، الفيصل، الدوحة، الحيل، المزمارة (مجلة عراقية للشباب)...الخ.

بالإضافة إلى تأثير مطالعاتي، ساهم والدي دون أن يقصد ذلك في ميولي نحو التاريخ وذلك عندما كان يقصّ عليّ ما خزنته ذاكرته من أحداث عاشها في أوروبا أثناء مشاركته في الحرب العالمية الثانية. كل هذه المؤثرات كانت لها دور بارز في اختياري لدراسة التاريخ.

كانت جامعة الجزائر في تلك الفترة تزخر بنخبة من أساتذة كبار خاصة في معهد التاريخ أمثال أبو القاسم سعد الله، مولاي بلحميسي، ناصر الدين سعيدوني، جمال قنان، موسى لقبال، وغيرهم. و استفدت شخصيا من محاضراتهم وتوجيهاتهم النفيسة.

- بعد ذلك تنقلت إلى فرنسا لمواصلة دراستك، وقضيت فيها 12 سنة من الغربة. فماذا أضفت لك هذه السنوات في حياتك العلمية والثقافية؟

- نعم عشت في فرنسا فترة طويلة طالبًا في الجامعة، ثم باحثًا، فمدرّسًا في مؤسسة تعليمية خاصة. أولاً كطالب احتكت بالطلبة الأجانب الذين كانوا يدرسون معي في الجامعة الفرنسية من جنسيات مختلفة يابانيون، وسويديون وألمان وإيطاليون...الخ.

تعلمت من خلال مجالستهم أشياء كثيرة كنت أجهلها في عالم الثقافات والمحاضرات. وتأكّدت من خلال مخالطتهم بأنّ المستوى الذي كوّنته في الجزائر خلال مشواري الدراسي، هو مستوى عالٍ سمح لي بأن أناقشهم وهم القادمون من مختلف الجامعات الأوربية واليابانية الراقية دون أي مركب نقص؛ بل كنت أوجههم وأرشدهم أحيانا في منهجية البحث.

وهذا دليل على أنّ المستوى التعليمي في الجزائر في السبعينات والثمانينات من القرن الماضي كان ممتازا.

وباعتباري كأننا ثقافيا بالدرجة الأولى، وجدت ضالتي في الجو الثقافي والفكري السائد في هذا البلد الأوروبي. الحياة الثقافية مزدهرة جدا، فيشعر الإنسان دائما أن الحركة الفكرية والأدبية لا تتوقف أبدا.

كنت حريصًا قدر الإمكان على حضور فعاليات الندوات التي لها صلة باهتماماتي التاريخية والفكرية، وهكذا استمعت إلى محاضرات علماء كبار كنت أقرأ لهم ثم أصبحت أراهم أمني: أمثال بيير بورديو، جاك دريدا، محمد أركون، شارل روبير أجيرون.

واستمعت أيضا إلى مجموعة من المفكرين العرب الذين كانت تستضيفهم المؤسسات العلمية والثقافية الفرنسية، أمثال إدوارد سعيد، عبد الله العروي، أحمد زويل، المتحصل على جائزة نوبل في الكيمياء (1999)، الذي قدم محاضرة رائعة حول مستقبل البحث العلمي في العالم العربي... الخ.

وكقارئٍ نهم وجدت كل شيء متوفرا أمني من كتب ومجلات في مكتبة الجامعة والمراكز الثقافية. والمكتبات منتشرة في كل مدينة وقرية. استفدت كثيرا من هذه المكتبات العمومية والخاصة. وإذا لم أجد الكتاب الذي أبحث عنه سجلت عنوانه في كراس المقترحات فأحصل عليه بعد فترة قصيرة. فالمكتبات لا تتوقف عن إثراء رصيدها بشراء الكتب الجديدة باستمرار، وكثيرا ما تستعين باقتراحات القراء في هذه العملية.

- ساهمت في تأسيس جمعية العلماء الاجتماعيين المسلمين بفرنسا، فما كان هدف هذه الجمعية؟ وما كان نشاطك فيها؟

لقد تأسست هذه الجمعية بفرنسا عام 2001؛ وكانت تجمع في عضويتها نخبة من الباحثين العرب المسلمين والأوروبيين الذين يشتغلون بالدراسات الإسلامية من

مقاربات متعددة، منهم المؤرخون والفلاسفة وعلماء الاجتماع والانتروبولوجيون وغيرهم من أصحاب التخصصات المختلفة.

وقد قام أعضاء هذه الجمعية بتنظيم ملتقيات وندوات محلية ودولية تناولت قضايا فكرية معاصرة. كما تهدف الجمعية إلى مدّ جسور التواصل مع الأكاديميين في العالم العربي الذين يشتغلون بالفكر الغربي.

وكانت للجمعية منشورات تتحدث عن أعمالها وكذلك بعض الإصدارات. وكنت مقررا لكل هذه النشاطات، فكتبت عنها تقارير علمية مفصلة نشرت في نشرية الجمعية بالفرنسية، وكذلك باللغة العربية في مجلات عربية معروفة.

- كيف بدأت تجربتك في مجال الكتابة؟ هل بدأت في فرنسا أم سبق لك وأن كتبت وأنت طالب في جامعة الجزائر؟

- أشكرك على هذا السؤال. كتبت أول مقال صحفي وأنا تلميذ في المتوسطة (الإعدادية)، وهي افتتاحية لمجلة كنا أسسناها مع ثلاثة من زملائي في المدرسة. وكتبت أيضا في المجلة التي كانت تصدرها ثانويتنا.

أما أول نص نشرته خارج الجزائر كان في ركن رسائل القراء في مجلة الجيل اللبنانية التي كانت تصدر في قبرص، وكنت حينئذ تلميذا في سنة أولى ثانوي.

وخلال وجودي بفرنسا، كتبت في مجلات مختلفة مثل "مجلة إسلامية المعرفة" التي تصدر عن المعهد العالمي للفكر الإسلامي بأمريكا، ومجلة "المجتمع" بالكويت، ومجلة

"النور" بلندن، "رؤى"، "مرايا" و"تعارف" بباريس، وجريدة "البصائر"، "المجاهد"، "لوماتان" بالجزائر.

كنت أتعاون مع بعض هذه المجلات ككاتب، وأساهم في بعضها كمحرر أي عضو هيئة التحرير كمجلة "رؤى" ومجلة "تعارف". وهي متخصصة في الفكر المعاصر. كما نشرت بحوثا بالفرنسية في مجلات أكاديمية بفرنسا وبريطانيا وتونس. فالكتابة بالنسبة لي هي متنفسي، أعبّر عن أبعائي وأفكاري وخواطري وآرائي ومواقفي بالقلم.

- والآن حدثنا عن تجربتك في كتابة التاريخ ونقلاتك في كامل ربوع الوطن لإلقاء المحاضرات؟

- أنا أنطلق دائما من قناعاتي التي مفادها أنّ كل أستاذ جامعي له ثلاث مهمّات أساسية: نقل المعرفة، إنتاج المعرفة، صناعة مجتمع المعرفة.

فهمة الأستاذ الأولى هي التدريس ونشر المعرفة بين طلبته ونقل تجاربه إليهم، والإشراف على أعمالهم وتوجيههم ومتابعتهم حتى يقدروا "على الطيران وحدهم" إن صح التعبير.

والحمد لله منذ اشتغالي بالتدريس في فرنسا أو الجزائر أجتهد في كل مرة لربط علاقة قوية مع الطلبة وتقديم أحسن ما عندي وبأفضل طرق التدريس المعاصرة، والإشراف على عدد من الطلبة النجباء.

وقد ناقش العديد منهم رسائلهم (الماجستير والدكتوراه)، وطبعت عدد منها وأصبحت مراجع هامة في تاريخ الجزائر المعاصر.

أما الجانب الثاني فهو البحث العلمي لإثراء المعرفة من خلال نشر البحوث في اختصاصه الدقيق وفي اهتماماته العلمية الأخرى سواء ككتب أو مقالات ودراسات في مجالات علمية.

وفيما يخصني، حاولت قدر الإمكان نشر مجموعة من الأبحاث والدراسات المحكمة بالعربية والفرنسية. وصدرت لي لحد الآن عشرة كتب ترتبط بالتاريخ والفكر المعاصر الذي أوليت له اهتماماً كبيراً بدراسة التيارات الفكرية المعاصرة، طرح القضايا التاريخية من مقارنة فكرية.

أما المهمة الثالثة فهي تتمثل في خدمة المجتمع؛ فالباحث أو المفكر لا يجب أن يبقى متابعاً متفرجاً — بل طرفاً في الحراك الاجتماعي والثقافي أو "متفرجاً ملتزماً" على حد تعبير الفيلسوف الفرنسي ريمون آرون.

فلا بد أن يساهم في بناء مجتمع حيوي من خلال الكتابة في الجرائد والصحف، والمشاركة في الحصص الإذاعية والتلفزيونية، وإلقاء المحاضرات في كل الفضاءات الثقافية العامة المتاحة.

هذه باختصار الرسائل الثلاث للعالم.

أتمنى أن يشعر بها كل باحث أو مفكر، وأن يلتزم بها ويحرص على تأديتها لتكوين جيل من الباحثين وإثراء حقل العلوم وصناعة مجتمع المعرفة المنشود.

- نريدك أن تعود بنا إلى بعض المحطات من ذكرياتك مع شيخ المؤرخين الدكتور أبو القاسم سعد الله والعلامة عبد الرحمان شيبان؟

- عرفت الدكتور أبو القاسم سعد الله - رحمه الله - قبل أن أنتقي به؛ عرفته من خلال ظهوره بين الفينة والأخرى في شاشة التلفزيون، ومن خلال مقالاته في المجلات والجرائد كمجلة "الأصالة" وجريدة "الشعب" التي كنت أفرؤهما كثيراً.

وكتب الله لي في لوح مقاديره أن أكون طالباً عنده في جامعة الجزائر. وكنت أغتنم الفرصة من حين إلى آخر بعد نهاية كل محاضرة، لأقترب منه، وأرافقه لبعض الأمتار من المدرج، وأطرح عليه بعض الأسئلة التي كان يجيبني عنها بكل تواضع.

ولعله من المفيد أن أذكر هنا عرضت عليه مع صديق لي مشروعاً لتأسيس نادي المؤرخ في معهدنا فرحب بالفكرة ولكن الاضطرابات الأمنية التي عرفت فيها بعد الجزائر حالت دون تجسيد الفكرة على أرض الواقع.

بعد تخرجي من الجامعة سافرت إلى فرنسا لمواصلة دراساتي العليا، ولم ألتق به إلى غاية 2003 بالجزائر بمناسبة انعقاد ملتقى دولي حول المفكر "مالك بن نبي"، وقد ترأس هو الجلسة التي بُرِمجتُ فيها للإلقاء محاضرة حول "الغرب في تصور مالك بن نبي وعلي شريعتي". ومنذ ذلك اللقاء الذي كان بغير موعد بيننا، بقينا على التواصل.

وتوثقت الصلة أكثر بيننا عندما التحقت بجامعة الجزائر في عام 2004، فكنا نلتقي في قسم التاريخ باستمرار، نتعاون في خدمة البحث العلمي وتكوين الطلبة خاصة في مرحلة الماجستير. وقد شرحت علاقتي به بشيء من التفصيل في مقال نشرته مباشرة بعد وفاته في ديسمبر 2013 رحمه الله.

أما بالنسبة للشيخ عبد الرحمن شيبان فكانت قصتي معه متشابهة كثيرا مع الدكتور سعد الله. اكتشفت اسمه في كتابي المدرسي " اللغة العربية " الذي أشرف على إصداره باعتباره مفتشاً عاما بوزارة التربية.

وكان لقاءي الأول بهذا العالم والمربي الكبير في عام 2001 بمناسبة ملتقى دولي حول " حوار الحضارات"، وقدمت بهذه المناسبة مداخلة عنوانها: " ما هو الغرب؟" وتقدم مني بتواضعه الجهم وأثنى على كلمتي ثم طلب من مصوره الشخصي أن يأخذ لنا سويا صورة تذكارية. وقد احتفظت بها وهي من الصور التي أعتر بها دائما.

وطلب مني أن أوصل الكتابة في جريدة البصائر التي كان يشرف عليها، وبالفعل عندما عدت إلى فرنسا أرسلت إليه مقالات وتغطيات لنشاطات فكرية وثقافية في باريس.

وعندما عدت إلى الجزائر عام 2004 زرتة في مكتبه؛ وأصبحت علاقتي به قوية جدا، كعلاقة الابن بأبيه، كان يقول لي دائما: "أنت حدائي أصيل". وكان يشرفني دائما بحضوره إلى المحاضرات التي كنت أقدمها في المجلس الإسلامي الأعلى، والمجلس الأعلى للغة العربية، والمركز الثقافي الإسلامي.

واغتم فرصة تجديد المكتب الوطني لجمعية العلماء المسلمين الذي كان يتأسسه، فعينني مسؤولاً عن التراث والبحث العلمي. وقد مرض بعد سنوات قليلة ولازم بيته، لكنّه بقي يتابع أحداث الجمعية وأخبارها. وبقيت على اتصال به إلى أن وافته المنية في شهر أغسطس 2011، فرحمه الله وأسكنه فسيح جنانه.

- ما هي العلاقة التي تربطك بجمعية العلماء المسلمين الجزائريين؟

- علاقتي بجمعية العلماء المسلمين هي قبل كل شيء علاقة وفاء لروادها ومؤسسيها أمثال عبد الحميد بن باديس، محمد البشير الإبراهيمي، الطيب العقبي، العربي التبسي، مبارك الميلي، الفضيل الورتيلاني وغيرهم من رجال الإصلاح. ولما عادت الجمعية إلى نشاطها من جديد تعاطفت معها دون أن انخرط في صفوفها.

كنت أساهم في أعمالها من خلال الكتابة في جريدة البصائر لسان حال الجمعية، ثم المشاركة في مختلف الملتقيات والنشاطات الثقافية والفكرية.

ونشرت مقالات ودراسات كثيرة عن تاريخ الجمعية وسير أعلامها في مجلات وجرائد مختلفة للتعريف بالمشروع الذي طرحه الشيخ عبد الحميد بن باديس ورفاقه في ميدان الكفاح.

ولما أصبحت أحد قادتها واصلت عملي. ونظمت للجمعية ملتقيات وندوات فكرية وتاريخية كثيرة في الجزائر العاصمة وفي مدن أخرى، وفي فضاءات متعددة من باب بناء جسور التواصل مع كثير من الجمعيات والمؤسسات الثقافية.

- حالياً أنت رئيس تحرير جريدة البصائر الغراء. فما هو تقييمك لها؟ وما مدى مساهمتها لنهج البصائر الأم (التاريخية)؟

- البصائر هي الآن في سلسلتها الرابعة التي انطلقت في عام 2001، ومازالت تصدر إلى الآن. فبصائر اليوم عاشت أطول مما عاشته في مراحلها المختلفة. كما تضاعف حجمها بثلاث مرات، حيث كانت تصدر في ثماني صفحات.

واليوم تخرج في أربع وعشرين صفحة؛ أي مسؤوليتي أنا اليوم كرئيس تحرير تفوق مسؤولية أسلافي في السلسلة الذهبية- الطيب العقبي، مبارك الملي، محمد البشير الإبراهيمي...- بثلاثة أضعاف.

ثم إن الجمعية في بكارتها كانت تضم مجموعة من العلماء والمفكرين ممن آمنوا بالمشروع الإصلاحى التنويرى، وبمستقبل اللغة العربية ونهضة الجزائر فكتبوا باستمرار رغم انشغالاتهم الدعوية والتربوية، و قلة الإمكانيات وكثرة العوائق.

هذه الروح هي غائبة اليوم عند المثقف الجزائري. كثيراً ما دعوت الباحثين والكتّاب للمساهمة بمقالاتهم في جريدتنا؛ لكن للأسف هناك من يعد ولا يوفى بوعدده، وهناك من يكتب مقالاً أو اثنين ثم يتوقف.

ونحن كمسؤولين على البصائر نحاول دائماً أن نتعامل مع هذا الركود الثقافى، نحركه قدر المستطاع، ونزرع دماء جديدة في عروق المثقفين وننشر الأمل فى المجتمع.

- "حان وقت الانتقال من الذاكرة إلى التاريخ". هذا تصريح لك في حوار مع جريدة يومية جزائرية. هل يمكنك أن تشرح للقارئ ما تقصده بهذا الكلام؟

- نعم قلت هذا الكلام. فيه خلط باستمرار بين الذاكرة والتاريخ. فليس كل ما تحتفظ به الذاكرة هو بالضرورة جزءا من التاريخ.

الناس تتوارث عبر العصور الأخبار والأحداث وأسماء الشخصيات والمعالم، تنتقل من جيل إلى آخر، وكل جيل يضيف إليها أو ينقص منها، فتختلط العواطف والخرافات والأساطير بالحقائق. ومهمة المؤرخ هو الفصل بين ما هو واقع فعلا في الزمن، وبين ما هو من نسيج خيال الناس.

وبالتالي تصبح نظرنا إلى الماضي تتجاوز مرحلة العواطف إلى الواقعية، ونقرأه كما وقع وليس كما يراد له أن يقع.

- يلاحظ المتابع لكتاباتك ومدخلاتك اهتمامك بالفكر، ويصعب على من لا يعرفك أن يصنفك بين المؤرخين أو بين الفلاسفة. وقد قال الدكتور سعد الله يوما أنه عندما يهرب من التاريخ يلجأ إلى التاريخ بينما يتجه الدكتور عويمر إلى الفلسفة. ما هو تعليقك يا أستاذ؟

- نعم كلامك مضبوط. أهتم كثيرا بالفكر سواء وأنا أتناول قضايا معاصرة، أو عندما أكتب في تخصصي الدقيق وهو التاريخ. أشغل كثيرا بتاريخ الأفكار، من خلال دراسة القضايا أو الأعلام. فإذا كانت الفلسفة أم العلوم، فإن الفكر هو أب المعارف.

وإذا رجعت إلى كتاباتي وجدت فيها تقريبا كل الأسماء اللامعة في سجل الفكر الإسلامي المعاصر درستها من زوايا مختلفة. أذكر لك بسرعة: الحرية عند ابن باديس، التاريخ عند محمد إقبال، الغرب في فكر علي شريعتي، إسلامية المعرفة عند إسماعيل الفاروقي، السياسة عند محمد البشير الإبراهيمي، الدولة في فكر المودودي... الخ. أما تراجم العلماء التي كتبتها فهي كثيرة جدا.

كما خصصت للفكر الغربي كتابين: "الإسلام والغرب بين رواسب التاريخ وتحديات المستقبل"، و"مقاربات في الاستشراق والاستغراب". تناولت فيها الغرب كموضوع دراسة بناء على التراث الغربي وتجربتي في المجتمع الأوروبي.

- مرّت كتابة تاريخ الجزائر بمراحل مختلفة حسب اختلاف المدارس فما هو تقييمك العلمي الأكاديمي لها؟

- بدأت الكتابة التاريخية "شبه الأكاديمية" -إن صح التعبير- في الجزائر مع بداية القرن العشرين من خلال كتاب "تاريخ الجزائر في القديم والحديث" لمبارك الميلي، و"هذه هي الجزائر" و"كتاب الجزائر" لأحمد توفيق المدني، و"تاريخ الجزائر العام" للشيخ عبد الرحمان الجيلالي. فهؤلاء هم رواد الكتابة التاريخية الحديثة في الجزائر.

غير أن الكتابة الأكاديمية للتاريخ فإنها تطوّرت بعد الاستقلال بفضل أعمال الدكتور أبو القاسم سعد الله، الدكتور محفوظ قداش، الدكتور مولاي بلحميسي، الدكتور موسى لقبال، الدكتور عطاء الله دهينة، الدكتور محمد الصغير غانم، الدكتور ناصر

الدّين سعيدوني، الدكتور عبد الحميد زوزو، الدكتور عبد الحميد حاجيات، الدكتور جمال قنان...الخ.

هؤلاء المؤرخون اشتغلوا بالبحث التاريخي كهنة، وأغلبهم متحصل على شهادة دكتوراه الدولة في التاريخ.

وما زالت المدرسة الأكاديميّة الجزائريّة قائمة تساهم في إنتاج المعرفة التاريخية لكنها تسيّر بخطوات ثقيلة؛ لأنّ البحث التاريخي لا يتطور إلا باستحضار الوثائق، والصدق في العمل والإصرار على الإبداع والابتكار، والوفاء للتاريخ والإخلاص لمهنة المؤرخ.

-وماذا تقول عن المدرسة الفرنسية؟

- المدرسة التاريخية الفرنسيّة هي من أعرق المدارس التاريخية في العالم، لكن الرّعيّل الأوّل والثّاني من المؤرّخين الفرنسيين الذين كتبوا عن الجزائر ابتعدوا عن الموضوعية العلمية من أجل خدمة المشروع الاستعماري الفرنسي.

لكن لا يجب أن ننكر جهود المؤرخين الفرنسيين الآخرين الذين خدموا تاريخنا بأبحاثهم واكتشافاتهم وتحقيقاتهم للمخطوطات؛ وأذكر على سبيل المثال الجمعية التاريخية الجزائرية التي أصدرت المجلّة الإفريقيّة (Revue Africaine).

وهي تعتبر اليوم من أغنى المصادر لما تحتويه من دراسات وأبحاث ميدانية ووثائق نادرة حول الجزائر سواء في مجال التاريخ أو في المجالات المعرفية الأخرى.

- أوليت اهتمامًا كبيرًا للفيلسوف مالك بن نبي وفكره. نريد أن نعرف منك إلى ماذا يعود كل هذا الاهتمام الكبير؟

- كتبت عن مالك بن نبي في سياق اهتمامي بالفكر المعاصر. فهو مفكر عملاق، وخليقٌ باهتمام الباحثين. لم أكن في البداية مهتمًا به. فأول ما قرأت له كان نصًّا في كتاب الأدب وفي درس الفلسفة حينما كنت أدرس في قسم البكالوريا. وما قرأته لم يثر فضولي. كنت آنذاك مغرما بكتابات الأدباء الشرقيين والغربيين.

ولم أكتشف قيمة بن نبي إلا بعد دخولي إلى الجامعة وقراءة كتابه: "مذكرات شاهد القرن" في أكتوبر عام 1988. اعتكفت في غرفتي بالحي الجامعي عدة أيام بعد غلق الجامعة وتعطل الدراسة بسبب المظاهرات الشعبية في 5 أكتوبر، وما تبعها من فوضى وإعلان لحالة الطوارئ.

قرأت هذا الكتاب بنهم كبير، وغصت في عمق أحداثه، فأعجبتُ كثيرًا به، وأعدت قراءته عدّة مرّات، فكان هذا الكتاب هو المنعطف الذي دفعني نحو الاهتمام بمالك بن نبي وفكره.

بدأتُ أبحث عن المزيد من أعماله، واشتريتُ تقريبًا كل كتبه التي كانت متوفرة في المكتبات ومعارض الكتاب، واطّلت عليها، وأعجبتُ كثيرًا بها خاصة كتابه "وجهة العالم الإسلامي" الذي أبهرنى محتواه، وهو من أعزّ الكتب إليّ، وأيضا كتابه "شروط النهضة".

ومن سيجيتي إذا أحببت شيئًا غصت في أعماقه، وبدأتُ أبحثُ عن كل ما يخص مالك بن نبي؛ من مقال أو دراسة أو كتاب، وأضمتها إلى رصيد مكتبتي.

وهكذا استطعت أن أجمع عديدًا من المقالات والدراسات؛ التي أحفظ بها إلى غاية اليوم، ثم بدأتُ أكتب عنه في المجلات العربية في المهجر كمجلة "رؤى" ومجلة "مرايا" (باريس)، ومجلة "النور" الصادرة بلندن؛ ثم تبعته مقالات ومحاضرات حول هذا المفكر.

وفي الأخير جمعت كل هذه المادة في كتاب عنوانه: "مالك بن نبي رجل الحضارة: سيرته وعطاؤه الفكري" في طبعتين. وقريبًا إن شاء الله تصدر الطبعة الثالثة مع إضافات كثيرة للكتاب.

- ما هي المرجعيات التي صنعت فيلسوفًا اسمه مالك بن نبي؟ وكيف استطاع هذا الأخير أن يصل بفكره إلى العالمية؟

- أجبت عن هذا السؤال في دراسة بعنوان "هكذا أصبح مالك بن نبي مفكرًا عالميًا". درس مالك بن نبي عند معلمين فرنسيين الذين وجمهوه نحو دراسة الحضارة الغربية وقراءة كتب الأدب الغربي.

ودرس أيضا على أساتذة جزائريين وجمهوه إلى دراسة التراث الإسلامي. وهكذا مزج منذ صغره بين الاطلاع على التراث الإسلامي من جهة، والتراث الأوروبي من جهة أخرى.

هذا الانفتاح المبكر على الحضارتين هو الذي جعل عقل مالك بن نبي إنسانيًا؛ ويخوض في المسائل الإنسانية فيما بعد كالتنهضة والحضارة.

فمرجعياته ومصادره مستمدة من الثقافة الإسلامية، والثقافة الغربية، ومعايشته للحضارة الأوروبية أثناء وجوده في فرنسا وزواجه من امرأة فرنسية التي كان يرافقها إلى بيتها الريفي فتعرف على عمق هذا المجتمع.

وعاش أيضًا في المشرق العربي، وسافر كثيرًا شرقًا وغربًا. فهذه الرحلات، وهذا الاحتكاك بالهياآت والثقافات المختلفة، صنعت مفكرًا عالميا، وعقلًا يفكر في قضايا إنسانية.

-وماذا عن زيارته إلى العراق؟

- زار مالك بن نبي العراق على رأس الوفد الجزائري لتعزية الحكومة العراقية وشعبها بعد وفاة الرئيس عبد السلام عارف. وألقى بن نبي كلمة تأيينية بليغة تحدث فيها عن علاقته بهذا الرجل؛ الذي كان يُعبر عن مرحلة تفاعلية للعالم الإسلامي، ومرحلة الخروج من التخلف والتحرر من التبعية. وهي القيم التي كان الرئيس العراقي الراحل يدافع عنها.

كانت هذه الزيارة أيضًا فرصة للمفكر الجزائري أن يكتشف خلالها جمال العراق وحضارته العريقة في بغداد وكربلاء والبصرة... وقد أعجب كثيرًا بما تحمله هذه الحواضر من آثار، ومعالم، وروحانيات قلما تجدها في أماكن أخرى.

- شكرا دكتور عويمر، ولك الكلمة الأخيرة.

- أشكرك على جهودك المبذولة؛ في سبيل التعريف بالمتقنين والمفكرين الجزائريين، وفتح نافذة يطلع القراء العرب من خلالها على الإنتاج الثقافي والفكري في الجزائر. كما أحيي جريدة "العراق اليوم" الغراء، التي أصبحت منبرا للتواصل بين الأشقاء المتقنين العرب.

لقد حان الوقت للمتقنين والمفكرين العرب والمسلمين أن يتجاوزوا الحواجز الجغرافية والسياسية والإيديولوجية، ويتعاونوا فيما بينهم تعاونا مثمرا من أجل إخراج مجتمعاتهم من التخلف، والارتقاء بأمتهن إلى مرتبة الأمم المتقدمة.

﴿ الفهرس ﴾

- 3.....مقدمة
- 6.....المحور الأول: الهوية والتاريخ
- 7..... مهنة المؤرخ وإشكالية كتابة التاريخ
- 22..... الهوية: واقعها ومستقبلها
- 34..... حديث في الهوية
- 36..... الحضارة العربية واختلاف المصطلحات الخاصة بتسميتها
- 41..... تراثنا الجزائري: الواقع والمأمول
- 46..... التجدد الحضاري إحياء لعناصر القوة الكامنة في التاريخ
- 58..... التاريخ المجهري تخصص حديث للتعلم في الثورة التحريرية
- 64..... مظاهرات 17 أكتوبر 1961 في باريس
- 68..... لقاء حول كتابي " المؤرخون العرب والقضية الفلسطينية "
- 75..... حوار مع جريدة الجمهورية حول قضايا تاريخية
- 89..... المحور الثاني: من أجل تنمية المجتمع

90.....	العلم والعلماء في خدمة تنمية المجتمع
93.....	جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بين الأمس واليوم
99.....	جمعية العلماء مدرسة للوعي ومواجهة التحديات الراهنة
106.....	واقع الجامعة الجزائرية
110.....	جريدة البصائر والرسالة الاجتماعية للصحافة
114.....	رسالة الصحافة ودور الإعلام في ترقية المجتمع
118.....	وقفات إعلامية مع غزة
124.....	العالم في زمن الكورونا: الواقع والمستقبل
131.....	المحور الثالث: بين حضارتين: الإسلامية والغربية
132.....	الترجمة جسر إلى فهم الآخر
140.....	نظرات في الإستشراق
151.....	نظرات في الاستشراق والاستغراب
158.....	الخطاب الإسلامي والبحث عن إعادة تشكيل العقل الغربي

166.....	النخبة الجزائرية فرضت منطقتها في المجتمع الغربي
168.....	المحور الرابع: أعلام وتجارب
169.....	الشيخ محمد الخضر حسين بين التنوير والتحرير
174.....	الشيخ عبد الحميد بن باديس ومشروعه الإصلاحية
186.....	الشيخ عبد الرحمن الجيلالي فقيه ضليح ومؤرخ متبحر
192.....	الدكتور علي شريعتي رائد العقلانية الإسلامية
199.....	فكر مالك بن نبي ما زال حيا وتأثيره بقي قائما إلى اليوم
205.....	حصاد السنين
223.....	الفهرس
226.....	المؤلف في سطور

المؤلف في سطور

-من مواليد 3 جوان 1968 بمدينة بوغني (الجزائر). حاصل على شهادة الليسانس في التاريخ من جامعة الجزائر، وشهادة الماجستير ودبلوم الدراسات المعمقة من جامعة بواتي (فرنسا)، والدكتوراه في التاريخ المعاصر من جامعة باريس في أبريل 1998.

-شارك في عدة ملتقيات دولية حول «العلاقات بين الإسلام والغرب» و«الفكر الإصلاحي المعاصر» في الجزائر والخارج.

-يعمل حالياً أستاذاً للتعليم العالي في التاريخ المعاصر بكلية العلوم الإنسانية بجامعة الجزائر2.

-صدرت له عدة كتب، وهي: «أعلام وقضايا في التاريخ الإسلامي المعاصر»، «مالك بن نبي رجل الحضارة» (ط 4 مزيدة)، «الإسلام والغرب بين رواسب التاريخ وتحديات المستقبل» (ط 2 مزيدة)، «مجالس فكرية»، «تراث الحركة الإصلاحية الجزائرية» (3 مجلدات)، «عبد الحميد بن باديس مسار وأفكار» (ط 3 مزيدة)، «شخصيات وذكريات» (ط 2 مزيدة)، «مقاربات في الاستشراق والاستغراب» (ط 2 مزيدة)، «العلماء الأخلاء» (ط 2 مزيدة)، «السجلات الفكرية في الجزائر»، «التواصل الفكري بين النخبة الإصلاحية في المغرب الكبير» (ط 2 مزيدة)، «العلاقات الثقافية

بين الجزائر والمشرق العربي في القرن العشرين»، «الفكر الإصلاحي المعاصر وقضايا التنوير»، «مالك بن نبي في الكتابات المعاصرة» (ط 2 مزيدة)، «الثورة الجزائرية في الدراسات المعاصرة»، «الرحلة الصينية»، «التاريخ والمؤرخون المعاصرون» (ط 2 مزيدة)، «حوارات في الفكر والتاريخ» (ط 4 مزيدة)، «كتب عشتُ معها»، «علي مراد باحث بين ضفتين»، «محمود بوزوزو من بجاية إلى جنيف»، «سعيد شيبان آراء وأبحاث في الصحة والثقافة»، «البحاثة سعد الدين ين شنب ملامح من حياته وآثاره»، «المؤرخون العرب والقضية الفلسطينية»،

-للمؤلف أيضا عدة مؤلفات مشتركة مع زملائه الباحثين، وكذلك مجموعة من كتب مخطوطة.

-يعد ويقدم أسبوعيا حصة فكرية وتاريخية على أثير الإذاعة الثقافية منذ عدة سنوات.



كنتُ أعتبر دائماً حضورى فى القنوات التلفزيونية والاستوديوهات الإذاعية وفى الجرائد والمجلات ولوجا إلى فضاءات أخرى مهمة للتواصل مع القراء، وفرصة ثمينة لعرض آراء وأفكار حول قضايا تراثية أو معاصرة لا تهتم فقط الباحثين والطلبة والمنتقنين الذين أوجهُ إليهم كتاباتي فى غالب الأحيان، وإنما تهتم أيضا شرائح أخرى من المجتمع التى لا يصل إليها ما أكتبه، أو تقرأه بشكل آخر بخاصة لما يكون مكتملا بالصورة والصوت كما هو الحال فى التلفزيون أو ممزوجا بالصوت والإحساس كما هو الحال فى الإذاعة.

ولا أخفى على القارئ أنى كنتُ أعبّر دائماً عن آرائى حول قضايا فكرية وتاريخية بكل حرية وراحة البال، أقول ما أراه صوابا يخدم تطوّر مسيرة العلم، ويساهم فى بناء مجتمع المعرفة، وينشر ثقافة العيش المشترك.

